المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الثاني

العبقريات الإسلامية ـ ٢

يحتوي على

الحسين أبو الشهداء

دار الكتاب اللبناني ـ بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص - ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٩٧٤

عباس محمود
العقاد

الحسين أبو الشهداء

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

يسرني أن أقدم الى حضرات القراء هـذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » ويعظم رجائي أن يصل الى أيد كثيرة غير التي وصل اليها في طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات

ليس من عادتي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها ، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقي عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فاذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها الى طبعة جديدة ، أمكنني أن أشعر بها شعور القارىء الذي يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات . وقد استغرب منها أمورا كالتي يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » ..

عجباً ! .. إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يَصْلَوْنَهَا ناراً حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! ..

كان هـذا شعوري بكتاب « أبي الشهداء » حين قرأته من جديد لتقديمه الى هذه الطبعة : مسكينة هذه الانسانية !.. لا تزال في عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الاثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سـبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا مأديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات

الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية فى كل شيء الا فى ضمير الانسان وروح الانسان

حقيقة واقعية فى اشتباك المصالح التجارية ، وفى اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى ..

حقيقة واقعية فى أعصاب الكرة الأرضية اذا صح هذا التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها فى أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب فى أقصى المغرب وفى أقصى الشمال والجنوب

حقيقة واقعية فى كل شيء الا فى ضمير الانسان وفى روح الانسان ، وهذا هو المهم والأهم اذا أريدت للانسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام ..

ولن توجد هذه الوحدة الا اذا وجد الشهداء فى سبيلها . فأنعم بمقدم « أبى الشهداء » من جديد الى ضمائر فريق كبير من بنى الانسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات فى سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال

تتفاءل أو لا تتفاءل .. تتشاءم أو لا تتشاءم ..

ليست هذه هى المسألة ، وانما المسألة هى ان طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الانسانية الا اذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية . فلا بقاء للانسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها ان لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته فى سبيلها ..

لا بقاء للانسانية بغير الاستشهاد ..

وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية الى ذكرى شهيدها الأكبر فنحني الرؤوس اجلالا « لأبي الشهداء » ..

عباس محمود العقاد

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما اذا اصطدما ــ ولا سيما في الأعمال الكبيرة ــ لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا للأريحية حتى يجبّ المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يجبّ الأريحية ويخفيها .. أو كذلك يتراءيان

وأصحاب المطالب الكبرى فى التاريخ يعتمدون على هــذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من طموح الى النبل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر في سبيل العظائم ..

ولكل منهما سبيله الى النفوس وأمله فى النجاح على حسب الأوقات والبيئات ..

الا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التى لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ..

لأن منفعة الانسان وجدت لفرد من الأفراد ..

أما الأريحية التى يتجاوز بها الانسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الانساني كله . ومن ثم يكتب لها الدوام اذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك ..

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما تقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضي قدما اليها ، فينال المنفعة التي لا ينالها

صاحب الأريحية لأنه يتركها اذا اصطدمت بما هو أجل منها

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ..

ولكن النجاح فى الحركات التـاريخية لن يسمى نجاحا اذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فاذا قيل ان حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهى الباقية بعد ذهابهم .. ومن هنا يصح أن يقال ان الأريحية أبقى وأنجح اذا هى اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين

وأصحاب الأريحية اذن أبعد نظرا من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير . فهم ــ شعروا أو لم يشعروا ــ بعيدو النظر الى عواقب الأمور ، وان خيّل الى أناس أنهم طائشون متهجمون

***

أما موقف المؤرخين فى العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير ..

فالذين يجنحون بمزاجهم الى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم ..

والذين يجنحون بمزاجهـم الى الأريحيـة يفهمـون دوافع النخوة ويحسبونها عذرا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق

الا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ..

وان العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه واهماله ، اذ كان تركه مناقضا لصميم الفطرة التى من أجلها فطر الناس على الاعجاب بكل ما يستحق الاعجاب

فليس يخشى على الناس يوما أن ينسوا منافعهم ويقصروا فى خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين

ولكنهم يخسرون الأريحية اذا فقدوها وفقدوا الاعجاب بها والتطلع اليها ، وهى التى خلقت ليعجب بها الناس . لأن حرص الانسان على منفعته لا يغنيهم فى حياتهم العامة أو فى حياتهم الباقية . أما الأريحية التى يتجاوز بها الانسان نفسه فى سبيل معنى من المعاني أو مثل عال من الأمثلة العليا ، فهى الخليقة النافعة للنوع الانساني بأسره ؛ وان جاز اختلافهم في كل معنى وفي كل مثل عال ..

صراع بين الأريحية والمنفعة

فى ماضي الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التي وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ..

ولكننا لا نحسبنا مهتدين الى نموذج لهذا الصدام أوضح في المبادىء وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معا من النموذج الذي عرضه لنا التاريخ في النزاع بين الطالبيين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علي ، ويزيد بن معاوية

قلنا في كتابنا « عبقرية الامام » ما فحواه:ان الكفاح بين علي ومعاوية ، لم يكن كفاحاً بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحا بين الامامة الدينية والدولة الدنيوية ، وان الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون الى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون الى الامامة من حزب الامام

ولو حاول معاوية ما حاوله علي لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علي أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئا عند محبيه ولا عند مبغضيه

فاذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع بنجاح معاوية الى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز فى الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال:ان أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الامامة

على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الامامة غير مطالب الزمان

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين . وانما هو الصراع بين الامامة والملك الدنيوي ، أو بين الأريحية والمنفعة فى جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير عما قد بلغه من الفوز والغلبة ..

***

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من « تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » .. فان يزيد لم يكن له فضل قط فى قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده . وانما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين في بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاوية الثاني بالشام — وكان من الزاهدين فى الحكم — فنادى الناس الى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أمّا بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ثم أوى الى بيته ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا منافس قوي كعبد الله بن الزبير بالحجاز

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية .. ورأي معاوية وأعوانه فى هذا أسبق من رأي الطالبين وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيرا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه . ولم يستحسنوا ذلك قبل ازجائهم النصح الى يزيد غير مرة بالاقلاع عن عيوبه وملاهيه . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابا « يصغر إليه نفسه » .. قال : « وما عسيت أن أعيب حسيناً ؟ .. والله ما أرى للعيب فيه موضعا »

وثمّ تعِلّة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبة

معاوية على « علي » بحجته في الاقناع ونشاطه أو نشـــاط أصحابه في الدعوة السياسية ..

فهذه التعلة ان صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هي بصالحة لتعليل نجاح يزيد ..

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صـــاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة العصبية المهتاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها في مبـــدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرا بطلب الخلافة ولا متعرضـــا لمزاحمة أحد على البيعة ، وانما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة

***

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا ان الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وان معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأى ولا هو من أهل الصلاح ولا هو ممن تتفق عليه آراء هؤلاء ، ولكنه فتى عربيد يقضي ليله ونهاره بين الخمور والطنابير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان الا ليهرع الى الصيـــد فيقضي فيه الأسبوع بعـــد الأسبوع بين الأديرة والبوادي والآجام ، لا يبالي خلال ذلك تمهيداً لملك ولا تدريباً على حكم ولا استطلاعاً لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيـــه ، ثقة بما صار اليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين علي ومعاوية غير جائز في المفاضلة بين الحسين ويزيد .. وانما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريحية الصراح فى مواجهة المنفعة الصراح . وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما في النفس الانسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما فى النفس

الانسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء

أقام الحسين ليلته الأخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات ، فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل ان كانوا يستحيون أن يفارقوه في ضوء النهار . فأبوا الا أن يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدي : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله في أداء حقك ؟ .. أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما بقي قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » . وقد برَّ بقسمه وبقي ومات .. ودنا منه حبيب بن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا اني أعلم اني في أثرك لاحق بك لأحببْت أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا ــ رحمك الله ــ أن تموت دونه » وأومأ بيده نحو الحسين

***

وقتل الحسين .. وذهب الأمل فى دولته ودولة الطالبيين من بعده الى أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها ..

فلما نعي الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة الجامعة . وصعد الى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته »

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدي الذي ذهبت احدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين . فصاح بالوالي غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة ! .. أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ .. انما الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه »

فما طلع عليه الصباح الا وهو مصلوب ..

الى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الانسانية نصرة الحسين ..

والى الأغوار المرذولة من الخسة والاثرة هبطت بالنفس الانسانية نصرة يزيد .. وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون الى الجزاء .. يسرعون اليه وليسوا هم بكافرين بالنبي الدفين فى تلك المدينة ، فيكون لهم عذر الاقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم ! ..

بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين بالضرب فى كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب !.. ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده ، لكانوا في شرعة المروءة أقل خسة من ذلك

***

وتتقابل وسائل النجاح في المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات ..

فكان شعار معاوية وأشياعه : « ان لله جنوداً من العسل » وهو يعني العسل الذي يداف بالسم ليخلى طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الأصدقاء . فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي والأشتر النخعي بهؤلاء الجنود !.. وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيرا لمعاوية فى حروب الشام .. فانه مات مسموما على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد !.. وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طبيب معاوية « ابن أثال » الذي اتهموه بسمه في الدواء

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا وشيكين أن يبلغوا مقصدهم من قريب . فقد كان هانىء بن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل انه « اذا صرخ لبّاه منهم ألف سيف » . فزاره عبيد الله بن زياد ــ والي

يزيد على الكوفة ـ ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله اليه . وقيل ان هانئاً عرض على مسلم بن عقيل بن أبي طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنــده ، وقيل ان الذي عرض ذلك رجل من صحبة هانىء المقربين . فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالي ، وجنوده قد تعقبــوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « انا أهل بيت نكره الغدر » . ولو انه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد ..

وليقل من شاء ان قتل ابن زياد كان صواباً راجحاً ..

وان التحرج من قتله كان خطأ فادحا من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذي لا يشك فيه أنه ان كان صواباً فهو صــواب سهل يستطيعه كثيرون ، وان كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذى لا يستطيعه الا القليلون ..

***

كذلك يقول من يقول : ان الأريحية التي سَمَت اليها طبائع أنصار الحسين ، انما هي أريحية الايمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت فى نصرة الحسين فيذهب لساعته الى جنات النعيم .. فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الانسان الى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وايمان . وينسون ان المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التى يصاب من جرائها الفرد طوعا أو كرها فى خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟.. انهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لايملكون عزيمة الايمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التى يتغلبون بها على رهبة الموت ويقدعون بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة فى الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر اذن فى آخر المطاف

الى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين

وكذلك يقول من يقول:ان الأريحية في نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه الى يومه الأخير .. وينسى هؤلاء ان الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسبر فى مكان واحد كما يسبر في كل مكان ، وانما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذى تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين ..

***

فمدار الخلاف اذن فى هذه الجولة التاريخية انما هو الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائناً ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامة فى النزاع بين الطالبيين والأمويين ، وخاصة فى النزاع بين الحسين ويزيد

فحياة الحسين رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها في توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين،وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح في كفاح الحياة ، سواء نظرنا الى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب ..

أسبابُ التَنافسِ والخصُومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع الى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية ، الى التِّرات الموروثة ، الى السياسة ، الى العاطفة الشخصية ، الى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير ..

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمية ناقما الى الشام وبقي هاشم منفرداً بزعامة بني عبد مناف في مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز ..

ثم علا نجم « أبي سفيان بن حرب بن أمية » في الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة الى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان في طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبي سفيان أصبع ظاهرة في تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادفات زمناً من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش فى حربها للنبي عليه الصلاة والسلام . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تيم وبني عدن وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالاسلام ، وبقي أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية فى منازلة النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار وبلغ من تغلغل العداء في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، أنّ أبا لهب عمه كان أوحد أعمامه في الكيد له والتأليب عليه ، وانما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان التي وصفها القرآن بأنها

« حَمَّالة الحطب » .. كناية عن السعي في الشر وتَأْرِيث نار البغضاء ..

ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر الى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً » .. فلما قال العباس : « إنها النبوة ! » . قال : « نعم إذن ! .. »

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة ،.وكان اسلام بيته أعسر إسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد اسلامه : « اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه .. قُبِّح من طليعة قوم .. هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم !.. »

***

وظل أبو سفيان الى ما بعد اسلامه زمنا يحسب غلبة الاسلام غلبة عليه ، فنظر الى النبي مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : « ليت شعري بأي شيء غلبني ! » فلم يخف عن النبي عليه السلام معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له: « بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! » ..

وكان في غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول : « ما أراهم يقفون دون البحر ! » وقيل انه كان في حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم : « ايه بني الأصفر » ، فاذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبني الأصفر ! »

***

وقد تألفه النبي عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حرماً « من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم في العطاء عسى أن يذهب مافي نفوسهم من الكراهة لغلبة الاسلام ..

ومع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون اليه ولا يقاعدونه ، حتى برم بذلك وأحب أن يمسح ما بصدورهم من قبله .. فتوسل الى النبي أن يجعل معاوية كاتباً بين يديه وأن يأمره فيقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين ..

ثم قبض النبي عليه السلام ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى .. فاشرأبَّ أبو سفيان الى هذه الفتنة ، وخيّل اليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها الى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الاسلامية بأسرها .. فدخل على «علي» والعباس ، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما فى وسعه من خيل ورجل . فنادى بهما : « يا علي ! وأنت يا عباس ! .. ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه — على أبي بكر — خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها » ..

***

وهو ولا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم ، ولا كان يسره أن تصير الخلافة اليهم فتستقر فيهم قرارا لا طاقة له بتحويله .. ولكنه أراد خلافا يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء ..

فلم يخف مقصده هذا على « علي » رضي الله عنه ، وقال : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه واياها » . ثم أنبه قائلا : « يا أبا سفيان !.. ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض .. متخاونون وان قربت ديارهم وأبدانهم »

وانقضت خلافة أبي بكر وخلافة عمر والأمور تجري في مجراها الذي يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب الفتن أن يبرزوا بها من جحورها ..

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار ، لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لزعماء بيوتهم ، وأصبحت الدولة الاسلامية أموية لا يطمع في خيراتها ولا ولاياتها الا من كان من أمية أو من حزبها . فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغـدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبي سفيان والى الشام يجتذب اليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون.ويخشى منهم الخلاف

فلما قتل عثمـان رضي الله عنه كان المتنفعون بمناصب الدولة وأموالها جميعا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان الى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين

***

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعا معروف النهاية من مطلع الرواية ، فقتل علي بن أبي طالب غيلة وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ..

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي ، فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره بجدالهم ومحالهم ، وكان رجلا سكّيتاً يكره المنازعة ويجنح الى العزلة ، فصالح معاوية على شروط .. وفّى له معاوية بالمعجل منها والتوى عليها بمؤجلها . وزاد على ذلك كما تواتر فى شتى الروايات أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجهـا يزيد ويعطيها مائة ألف درهم ، فوفى بوعد المال ولم يف بوعد الزواج

وقد أوصى الحسن رضي الله عنه أن يدفن عند قبر جده الا أن تخاف فتنة . فلما توفي أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع بنى أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه .. فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي أن يدفن الى جوار جده ، فقيل له : « ان أخاك قال اذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة .. وهذه فتنة » .. فسكت على مضض

وقد كان معاوية ولا ريب ينوي أن يجعلها دولة أموية متعاقبة في ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، الا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضي بنيته الى أقرب المقربين اليه ، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل الى ذلك بما طاب له من وسيلة .. فلبّاه أهل الشام وكتب بيعته الى الآفاق ، ثم همّه أمر الحجاز فكتب الى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالاباء ، لأنه كان يتطلع الى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من نقص وعبث .. فعزله معاوية وولى سعيداً بن العاص مكانه ، فلم يجبه أحد الى ما أراد . فكتب معاوية الى عبدالله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن علي ، وأمر عامله سعيداً أن يوصل كتبه اليهم ويبعث اليه بجواباتها . وقال لسعيد : « فهمت ماذكرت من إبطاء الناس ، وقد كتبت الى رؤسائهم كتبا فسلمها اليهم .. ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق . وانظر حسيناً خاصة فلا يناله منك مكروه ، فان له قرابة وحقاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة .. وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه »

***

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة فى اقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية الى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال ، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمّرون وتجبون المال وتقسمونه »

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيّره بين أن يصنع كما صنع رسول الله اذ لم يستخلف أحدا ، أو كما صنع أبو بكر ، اذ عهد الى رجل ليس من بني

أبيه ، أو كما صنع عمر اذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه

فقال معاوية مغضبا : « هل عندك غير هذا ؟ »

قال : « لا .. »

والتفت الى الآخرين يسألهم قائلا : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير...

فقال متوعداً : « أعذر من أنذر !.. إني كنت أخطب فيكم فيقوم اليَّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس فأحمل ذلك وأصفح ، واني قائم بمقالة .. فأقسم بالله لئن ردَّ علي أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل الا على نفسه »

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « ان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما » .

ثم خرج بهم الى المسجد ورقي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ــ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى الا على مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله

فبايع الناس ..

وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز ..

***

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها .. فأوصى ابنـه « انه لا يخاف الا هؤلاء من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير » . قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه .. فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً

« أما ابن الزبير فانه خب ضب ، فاذا أمكنته فرصة وثب .. فان هو فعلها فقدرت عليه ، فقطّعه إرباً إرباً الا أن يلتمس منك صلحاً ، فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » ..

وآلَ الأمر على هذا النحو الى يزيد فى سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة ، وزياد ، وعمرو ابن العاص ، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه .. فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب الى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : « أن خذ حسيناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام »

فبعث الوليد الى مروان بن الحكم يستشيره .. وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بني أمية ، فان خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة فى الدعوة ليزيد وباطنها السعي الى الخلاص من يزيد ومنافسيه . فقال : « أرى أن تبعث الساعة الى هؤلاء النفر فتدعوهم الى البيعة . أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فان بايعا والا فاضرب اعناقهما .. »

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد .. ثم الخلاص من يزيد نفسه باثارة النفوس وايغار الصدور عليه !

***

وقد ذهب رسول الوليد الى الحسين وابن الزبير ، فوجدهما فى المسجد .. فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد : « ان دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا علي بأجمعكم ، والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم » ..

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فان مثلي لا يعطي بيعته سراً ، ولا أراك تقنع بها مني سراً »

قال الوليد : « أجل ! »

قال الحسين : « فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنامعهم فكان الأمر واحداً »

ثم انصرف ومروان غاضب صامت لايتكلم .. وما هو الا أن توارى الحسين حتى صــاح بالوليد : « عصيتني والله ! لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه »

فأنكر الوليد لجاجته وقال له : « أتشير علي بقتل الحسين ! والله ان الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله »

***

وهكذا انتهت المنافسة بين بني أمية وبني هاشم الى مفترق طـريق لا سبيل فيه الى توفيق ، ولم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وان غلبها الاسلام في عهد النبوة ، وفي عهد الصديق والفاروق

وكفى بالاسلام فضلا فى هذا المجال أنه غلب العصبية بالعقيدة ، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة ..

***

وكثيرا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وان طالت به الرياضة والانقيــاد

فاتفق كثيرا فى مســاجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت الى اللسان بوادر العصبية والنبي عليه السلام حاضر ، فلما أشار عمر بقتل أبي سفيان ــ على خلاف رأي العباس في استبقائه وتألفه ــ قال العباس : « مهلا ياعمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ماقلت مثــل هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف »

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفترين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة الا انك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ــ الأوس ــ ما قلت هذا .. »

وقد مات الفاروق وهو يوصي علياً فيقول : « اتق الله يا علي ان وليت

شيئا ، فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين » .. ثم يلتفت الى عثمان فيقول له : « اتق الله ان وليت شـيئا فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين » ..

***

ومن عجائب الحيل التي تحاول بها الغرائز الانسانية أن تبقى وجودها وتمضي لطيّتها ، أن بنى أمية انتفعوا من حرب الاسلام للعصبية في تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بني هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون .. واذا نهضت هذه الحجة على بني هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة في هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان يلطف القول الى أبناء على ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرا الى مجاملة آل علي ومضطراً الى تنقص علي والغض من دعواه . فكان بذلك مضطرا الى النقيضين فى آن.

انه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور . فكان الناس يفضلون علياً عليه وهو لايملك ان يفاضله بقرابة النبي ، ولا بالسابقة الى الاسلام ، ولا بالعراقة فى قريش . فتجنب النسب والسابقة ، وعمد الىشخص عليفى منازعات الخلافة ، فاتهمهبتفرقة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنـابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التي هو مغلوب بها ويستبقي الدولة التي هو بها غالب .. ولج في ذلك حتى قتـل أناساً لم يطيعوه في لعن علي واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن علي الى شرطه الذي أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه .. وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعوراً من حيث حارب علياً فى مقام السمعة والشعور ..

وان مجاملة كهذه التي تحيي الرجل وتغض من قدر أبيه لهي أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلا عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال الى مفترق الطريق

زواج الحسين

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفي قصاص التاريخ ، فأضاف اليها أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى هي وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين . وهي قصة زواج الحسين رضي الله عنه بزينب بنت اسحق التي كان يهواها يزيد هوى أدنفه وأعياه

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت زوجة لعبدالله بن سلام القرشي والي العراق من قبل معاوية

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته .. فلما علم أبوه سر مرضه أرسل في طلب عبد الله بن سلام واستدعى اليه أبا هريرة وأبا الدرداء ، فقال لهما: ان له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها خليلا غير ابن سلام ، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية في تكريمه وتقريبه . فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية في خطبة ابنته ، فوكل معاوية الأمر الى أبي هريرة ليبلغها ويستمع جوابها . فكان جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده .. فاذا هو يلويه به ويقول بلسان ابنته: إنها توجس من رجل يطلق زوجته وهي ابنة عمه وأجمل نساء عصره ..

***

وقيل: ان الحسين سمع بهذه المكيدة ، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاطباً .. فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب : « انك لا تعدمين طلابا خيراً من عبد الله بن سلام »

قالت : « من ؟ » قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال.»

واستشارته فى اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبّله رسول الله ، تضعين شفتيك فى موضع شفتيه »

فقالت : « لا أختار على الحسين بن علي أحدا وهو ريحانة النبي وسيد شباب أهل الجنة »

فقال معاوية متغيظاً :

إنعمي أمَّ خالدٍ   ربَّ ساعٍ لقاعدِ

ولم يلبث الحسين أن ردها الى زوجها قائلا : « ما أدخلتها فى بيتي وتحت نكاحي رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكن أردت إحلالها لبعلها »

***

فان صحت هذه القصة وهي متواترة في تواريخ الثقات ، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل في هذه الخصومة ، لا يقبل الارجاء ، وكان بينهما كما أسلفنا مفترق طريق ..

موازنة

لخص المقريزي المنافسة التي بين الهاشميين والأمويين في بيتين فقال :

عبد شمس قد أضرمت لبني ها
شم حرباً يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى ، وابن هند
لعلي ، وللحسين يزيد

وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضا موجزا لهذه المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأي فيها ، ولكننا نجتزىء هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصاولين من هاشم وعبد شمس في شخصي الحسين ويزيد .. فأياً كان الميزان الذي يوزن به كل من الرجلين ، فلا مراء البتة في خير الرجلين ..

وما من رجل فاز حيث ينبغي أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية في حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقاً وأظهر فضلا من الحسين في خصومته ليزيد بن معاوية

والموازنة بين هذين الخصمين هي في بعض وجوهها موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء سبعة قرون ، فلم يظهر في هذه القرون أموي قح ، الا ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة في القبيلة بأسرها ، ولم يظهر في خلالها هاشمي قح ، الا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التي بلغت مثلها الأعلى في محمد بن عبد الله عليه السلام

والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع الى عبد مناف ، ثم الى قريش في أصلها الأصيل ..

ولكن الأسرتين تختلفان في الأخلاق والأمزجة وان اتحدتا في الارومة.. فبنو هاشم فى الأغلب الأعم مثاليون أريحيون ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولاسيما الأصلاء منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير .. فان الأخوين في البيت الواحد قد يختلفان في الأخلاق والأعمال ، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعاً لاختلاف سلسلة الميراث في الأصول والفروع ، على ذلك النحو الذي يأذن أحيانا باختلاف الألوان والملامح في نسل واحد ، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة

***

ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى في الصورة والقامة والملامح ..

وفى نسل أمية شبهة نشير اليها ولا نزيد ، فهي محل الاشارة والمراجعة في هذا المقام ..

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : «من رأيت من علية قريش ؟». فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس » . فقال : « صفهما لي » . فقال : « كان عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » . قال : « فصف أمية » . قال : « رأيته شيخا قصيرا ، نحيف الجسم ضريرا ، يقوده عبده ذكوان » . فقال معاوية : « مه ! .. ذاك ابنه أبو عمرو » . فقال دغفل : « ذلك شيء قلتموه بعد وأحدثتموه .. وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به »

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب «المثالب» أن أبا عمرو بن أمية كان عبداً لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصبهاني — وهو من الأمويين — ما تقدم فلم يعرض له بتفنيد ..

ووضح الفرق بين بني هاشم وبني أمية في الخلائق والمناقب في الجاهلية

قبل الاسلام . فكان الهاشميون سراعاً الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه ..ولم يكن بنو أمية كذلك .. فتخلفوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ، وليأخذن أنفسهم بالتآسي في المعاش والتساهم في المال ، وليمنعن القوي من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب » واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدي ولواه بثمنها ، فنصروا الرجل الغريب على القرشي وأعطوه حقه ..

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية الى نفيل بن عدي ، قضى لعبد المطلب وقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عفّ   وذاد الفيل عن بلد حرام

يشير الى فيل أبرهة الذي أغار به على مكة . وقال عن أمية إنه «معاهر» لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بني زهرة ، وكان له تصرف عجيب في علاقات الزواج والبنوة . فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته في حياته ، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع.

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر في اختلاف النشأة والعادة — مع اختلاف الخلقة الجسدية — فنرى انهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ..

فقد كان بنو هاشم يعملون فى الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون في التجارة أو الرئاسة السياسية .. وهما ما هما في الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن والتطفيف والتزييف ، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الايمان ووسائل الحيلة على النجاح

ويتفق كثيراً في الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات

الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارسـون من شعائر الكهانة ، ومظاهر العبادة ، ويتخذونها صناعة يروجونها لمنفعتهم أو لما يقدرون فيها من منفعة أولئك الأغرار والجهلاء ..

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين ، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون بالبيت ورب البيت ، وبلغ من ايمانهم بدينهم أن عبد المطلب ــ جد النبي عليه السلام ــ أوشك أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر « لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة » ، ولم يتحلل من نذره حتى استوثق من كلام العرافة بعد رمي القداح ثلاث مرات

***

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين أصحابها بما يدعون اليه .. فان لم تكن في بني هاشم موروثة من معدن أصيل في الأسرة ، فهي أشبه بسمت الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة والشعائر المتبعة جيلا بعد جيل ، وهي أخلق أن تزداد في الأسرة تمكناً بعد ظهور النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبي وأقرب الناس اليه ..

وانك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبيين ــ أبناء علي والزهراء ــ مائة سنة وأربعمائة سنة ، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيل اليك أن هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله في الخصال والعادات .. كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجباً : ان هذه لصفات علوية لاشك فيها ، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه ، وتراه يعمل ويجزي من عمل له ، فلا تخطىء في كلامه ولا في عمله تلك الشـجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبـلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التى اشتهر بها علي وآله ؛ تجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليها أوفى دلالة ، وهما : « الفروسية والرياضة » ..

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتـانة في الأسر يستوي فيها الخلق والخلق · ونخوة لا تبالي ما يفوتها من النفع اذا هي اسـتقامت على سنة المروءة والاباء ..

فمن يحيى بن عمر ، الى علي بن أبي طالب ، خمسة أو ستة أجيال .. ولكن يحيى بن عمر يوصف لك ، فاذا هو صورة مصغرة من صور علي ابن أبي طالب على نحو من الانحاء ، فمن أوصافه التي وصفه بها الكاتب الأموي أبو الفرج الأصبهاني انه كان « رجلا فارسا ، شجاعا ، شـديد البدن ، مجتمع القلب بعيداً عن رهق الشباب وما يعاب به مثله »

ومما روي عنه « انه كان مقيما ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقيـل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضى الله عنه »

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرايته في بيت المال ، كان يجـوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « ان عشنا آكلنا »

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد ، فأقبلت عليهم الجموع المحشـودة لقتاله ، وأسرع اليه بعض الأعراب فصـاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع .. هذه الخيل قد أقبلت » .. فوثب الى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه .. فولّى منهزما وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالي مايكون

***

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجلي انه كان مدسوساً عليه ، وانه غرر به لينكص عنه عند احتـدام القتال . فأقسم الرجل بالطلاق انه لم يكن له في الهزيمة صنع مدبر .. قال : « وانما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل .. وحمل مرة كمـا كان يفعل ، فبصرت عيني به وقد صرع في وسـط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابي »

ويحيى الشهيد هـذا هو الذي قال ابن الرومى جيميته المشهورة في وصف قتاله ومقتله ، وهي طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم
غداة التقى الجمعان والخيل تمعج (1)

لأعطى يد العاني أو ارتد هاربا
كما ارتد بالقاع الظليم (2) المهيج

ولكنه ما زال يغشى بنحره
شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج

وحاشى له من تلكم غير أنه
أبى خطة الأمر الذي هو أسمج

وأين به عن ذاك ؟.. لا أين ــ انه
اليه بعرقيه الزكيين محرج

كأني به كالليث يحمي عرينه
وأشباله لا يزدهيه المهجهج

كدأب علي في المواطن قبله
ــ أبي حسن ــ والغصن من حيث يخرج

كأني أراه اذ هوى عن جواده
وعفّر بالترب الجبين المشجج

فحب به جسماً الى الأرض اذ هوى
وحب به روحاً الى الله تعرج

***

وقد أصاب ابن الرومي الوصف والتعليل ، فما كان كل من يحيى ولا أسلافه من قبله الا علياً صغيراً يتأسى بعلي الكبير ، أو غصناً زاكياً يخرج من دوحته الكبرى ، «والغصن من حيث يخرج» كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع في أساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة الواضحة بعد ستة أجيال . فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الأجيال ــ وهو بعموده الحديدي وجرأته التي لا تتزعزع ويقينه الذي لا يلوي

(1) معج الفرس : أسرع سيره في سهولة
(2) ذكر النعام

به الاغراء والوعيد ـ كأنما هو نسخة من جده الكبير الذي يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال ، وينهد لعمرو بن ودّ وقد تهيبه مئـات الأبطال ، ويتوسط الصفوف حاسرا وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال ..

ولم يكن لبني أمية ـ على نقيض هذا ـ نصيب ملحوظ من الخلائق المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة في أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم كما يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها . بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفي الى صفات تقابل تلك الصفات ، ومزايا تعوض لهم مافاتهم من تلك المزايا .. فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التي دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها مراس المطامع السـياسية . فاشتهر أناس من رؤوسهم بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صـفات المراوغة والجشـع والاقبال على الترف ومناعم الحياة

***

ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل الأسرتين ، كما تقابلا في كثير من الخلائق والحظوظ .. ولكنهما تفاوتا في تمثيل أسرتيهما كما تفاوتا في غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما .. فكان الحسين بن علي نموذجاً لأفضل المزايا الهاشمية،ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجاً لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة الا القليل

وليس بنا هنا أن نفصل القول في أحوال كل من الرجلين وخصائص كل من النموذجين ، ولكننا نجتزىء منهما بما يملأ الكفتين فيهذا الميزان، وهو ميزان الأريحية والنفعية في حادث كبير من حوادث التاريخ العربي يندر نظيره في جميع التواريخ

مكانة الحسين

واذا كانت المعركة كلها هي معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التي ينبغي توكيـدها هنا للحسين بن علي رضي الله عنه هي مزية نسبه الشريف ومكانه من محبة النبي عليه السلام ..

ان المؤرخ الذي يكتب هذا الحادث قد يكون عربياً مسلماً أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمـداً وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطىء دلالة الحوادث التاريخية اذا استخف بهذه المزية التي قلنا انها أحق مزايا الحسين بالتوكيد في الصراع بينه وبين يزيد

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف في نفوسهم أو قيمته في علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكنما المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف في الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هـذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين ..

فلولا هذه المزية في الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا وهنـاك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك الدلالة التي كشفت النفس الانسانية في جانبين منها قويين ، يتنازعان حوادث الأمم والأفراد من زمان بعيد . وسيظلان على نزاعهما هذا الى زمان بعيد

***

ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب إنسان الى قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تنعطف اليه القلوب

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه ، وسمى من قبله أخاه . . قال علي رضي الله عنه : « لما ولد الحسن سميته حرباً فجاء رسول الله فقال: (أروني ابني ما سميتموه ؟) . قلت : (حـرب !) فقال . (بل هو حسن) . فلما ولد الحسين سميته حرباً ، فجاء رسول الله فقال . (أروني ابني .. ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسين) .. »

وذهب الى الحسين واخوته كل ما في فؤاد النبي عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد الى الذرية من نسله . فكان عليه السلام لايطيق أذاهما ، ولا يحب أن يستمع الى بكاء منهما في طفولتهما ، على كثرة مايبكي الأطفال الصغار. وخرج من بيت عائشة يوماً ، فمرَّ على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكي ، فقال : « ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني ؟ »

وكان يقول لها : « ادعي اليَّ ابنيَّ » .. فيشمهما ويضمهما اليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين . وروى أبوهريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين ، فيرى الصبي حمرة لسانه فيهش اليه ، وكان عيينة بن بدر ، شهده في بعض هذه المجالس فقال متعجباً : « يصنع هذا بهذا ؟ فوالله ان لي الولد وما قبلته قط ! » قال عليه السلام : « من لايرحم ، لايُرحم ؟ »

***

وخرج ليلة في احدى صلاتيّ العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، قال راوي الحديث : « فرفعت رأسي فاذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودى ، فلما قضى الصلاة قيل يارسول الله : انك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك .. » قال : « كل ذلك لم يكن .. ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .. »

وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران .. فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ! .. (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) .. نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما »

***

ولا يوجد مسلم فيالعصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذي غمر به قلبه

الكريم سبطيه وأحب الناس اليه .. فبهذا الحنان النبوي قد أصبح الحسين في عداد تلك الشخوص الرمزية التى تتخذ منها الأمم والملل عنوانا للحب ، أو عنوانا للفخر ، أو عنوانا للألم والفداء .. فاذا بهـا محبوب كل فرد ومفخرته ، وموضع عطفه واشفاقه ، كأنما تمت اليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة ..

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان ـــ مع الزمن ـــ مبلغــه من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه في حمله وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات . فقال بعضهم : « لم يولد مولود لستة أشهر وعاش الا الحسين وعيسى بن مريم » . وقال آخرون انه رضي الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أنثى « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه ابهامه فيمصه ويجعل الله فى ابهام رسوله رزقا يغذيه ، ففعل ذلك أربعين يوما وليلة ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله .. »

ورُ وي عنه غير ذلك كثـير من الأساطير التى تحيط بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التى تعزها وتغليهـا فتلتمس لهـا مولدا غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقهـا أو توشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات ..

***

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفؤاً لتلك الصورة الرمزية التي نسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة.

فكان ملء العين والقلب فى خَلق وخُلق ، وفى أدب وسيرة ، وكانت فيه مشابه من جده وأبيه .. الا أنه كان فى شدته أقرب الى أبيه . قال رضي الله عنه مشيرا الى الحسن : « ان ابني هذا سيخرج من هذا الأمر ، أشبه أهلي بي الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن الحلم والأناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي »

وقد تعلم في صباه خير مايتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، واليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التي يعولون عليها ويردونها الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وقد أوتي ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال إيماء . ومن كلامه المرتجل قوله في توديع أبي ذرّ وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يا عَمّاه ! ان الله قادر أن يغيّر ما قد ترى . والله كل يوم فى شأن : وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم الى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فان الصبر من الدين والكرم ، وان الجشع لايقدم رزقاً والجزع لايؤخر أجلا »

وكان يومئذ فى نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا الى أن فارقها في مصرع كربلاء

***

وتواترت الروايات بقوله الشعر في أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :

إغنَ عن المخلوق بالخالقِ   تغنَ عن الكاذب والصادقِ
واسترزقِ الرحمنَ من فَضْله   فليسَ غير الله من رازق
من ظنَّ أنّ الناس يغنونه   فليس بالرحمن بالواثق

ومنه هذان البيتان في زوجته وابنته :

لعمرك انني لأحب داراً   تكون بها سكينةُ والربابُ
أحبهما وأبذلُ كلَّ مالي   وليس لعاتبٍ عندي عتاب

وهما ــ سواء صحت نسبتهما اليه أو لم تصح ــ معبران عن خلقه في بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حدباً على الأبناء وأشد الأزواج عطفاً على النساء ، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هذه التي ذكرت فى البيتين السابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتله فقالت .

« ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله ..» وبقيت سنة لا يظلها سقف حتى فنيت وماتت ، وهي لا تفتر عن بكائه والحزن عليه ..

خلق كريم

وقد سنّ الحسين لمن بعده سنّة فى آداب الأسرة تليق بالبيت الذي نشأ فيه ووكل اليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره ، فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن في مناقب كثيرة ومآثر عدة كان يستمع الى رأي الحسن ولا يسوءه بالمراجعة أو المخالفة . فلما همّ الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من الحسين . فلم يوافقه وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : « والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطيّن عليك بابه ، حتى أقضي بشأني هذا وأفرغ منه ثم أخرجك .. »

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ..

***

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة انه ركبه دين فساومه معاوية بمائتي ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين « أبي بيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته الى بعض ما عرض عليه — لأن أباه تصدق بمائها لفقراء المدينة ، ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار في رعاية أسرته ورعاية الناس عامة .. فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفه لرجل من قريش ذاهب الى المدينة فقال : « اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزراً الى أنصاف ساقيه .. »

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو يعلمهم ويبصرهم بشئون دينهم ، الا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله في جواب ذلك أشباه تلك القوارص التي كانت تؤثر عن أبيه

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين

فمن آدابه وآداب أخيه في ذلك أنهما رأيا اعرابياً يخفف الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلطه وقالا له : « نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلي عندك ، فان كان عندنا قصور تعلمنا » . فتنبه الشيخ الى غلطه دون ان يأنف من تنبيههما اليه . ومر يوماً بمساكين يأكلون فدعوه الى الطعام على عادة العرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجبتكم فأجيبوني » ودعاهم الى الغداء في بيته

***

ورويت الغرائب في اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رويت أمثال هذه الغرائب فى امتحان قدرة أبيه عليهما السلام .. فقيل: ان اعرابياً دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن رضي الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه ، فقال لما عرفوه به : « إياه أردت .. جئت لأطارحه الكلام وأسأله عن عويص العربية » . فقال له بعض جلسائه : « ان كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب » . وأومأ الى الحسين عليه السلام ، فلما سلَّم على الحسين وسأله عن حاجته قال : « اني جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم » فتبسم الحسين وقال :

— يا اعرابي ! .. لقد تكلمت بكلام ما يعقله الا العالمون

فأجابه الاعرابي قائلا يريد الاغراب : وأقول أكثر من هذا ، فهل أنت مجيبي على قدر كلامي ؟.. ثم أذن له الحسين فأنشد أبياتاً تسعة ، منها :

هفا قلبي الى اللهو وقد ودع شرخيه

فأجابه الحسين مرتجلا بتسعة أبيات في معناها ومن وزنها وقوافيها ، يقول منها :

فما رسم شجاني قد محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين في بوغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى على تلبيد ثوبيه

الى آخر الأبيات .. ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم ، والجعلل وهو قصار النخل ، والأيتم وهو بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ، وفى هـذه الكلمات أوصاف البلاد التى جاء منها واشارة اليها ..

فقال الاعرابى : « ما رأيت كاليوم أحسن من هـذا الغلام كلاما ، وأذرب لسانا ، ولا أفصح منه منطقا »

وتلك رواية من روايات على منوالها ، ان لم تنبىء بما وقع فهى منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين فى صباه الباكر بالعلم والفصاحة ..

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتادونه وبهم من الطمع فى اصغائه أكبر من طمعهم فى عطائه .. ولكنه على هذا كان يجري معهم على شرعة ذوي الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه في خصاصة الحال . وقد لامه أخوه الحسن في ذلك فكتب اليه « ان خير المال ما وقى به العرض » الا أنه في الواقع لم يكن يعطي لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطي من قصده من ذوي الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة

وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الانسانية وأليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة

فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع معاوية ان بينه وبين الرجل عهدا وعقدا لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معاً ، فقال لصحبه يوما وقد أرسل الهدايا الى وجوه المدينة من كسى وطيب وصلات : « ان شئتم أنبأناكم بما يكون من القوم .. أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من الطيب وينهب ما بقي من حضره ولا ينتظر غائبا ، وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فان بقي شىء نحر به الجزر وسقى به اللبن .. »

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من معدنه » كما قيل . وهي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده ، وقد شهد الحروب في افريقية الشمالية وطبرستان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعاً من الجمل الى صفين . وليس في بني الانسان من هو أشجع قلباً ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء

وقد تربّى للشجاعة كما تلقاها في الدم بالوراثة ، فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التي تتم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط .. ومنها لعبة تشبه «الجولف» عند الأوروبيين كانوا يسمونها«المداحي»: جمع مدحاة ، وهي أحجار مثل القرصة يحفرون في الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار ، فمن وقع حجره في الحفيرة فهو الغالب

***

أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والقصد في تناول كل مباح . كان يحب الطيب والبخور ، ويأنق للزهر والريحان ..

وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيته بها . فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسأله أنس متعجباً : « جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ » . قال : « كذا أدبنا الله .. قال تبارك وتعالى : (واذا حُيِّيتُمْ بتحيةٍ فَحَيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوهَا) .. وكان أحسن منها عتقها »

وكان يميـل للفكاهة ويأنس فى أوقات راحتـه لأحاديث أشـعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوع الترف في عصره لم يكن يقارب منه الا ما كان يجمل بمثله .. حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب..

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر

وقد عاش سبعا وخمسين سنة بالحساب الهجرى ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون .. فلم يعبه أحد منهم بمعابة ولم يملك أحد منهم أن

ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيبه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له . واقترحوا عليه أن يكتب اليه بما يصغره فى نفسه . فقال انه كان يجد ما يقوله في علي ، ولكن لا يجد ما يقوله فى حسين

تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين ..

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة فى معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله

فيزيد بن معاوية عريق النسب فى بنى عبد مناف ثم فى قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التى اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف . وأشهرها الاثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها . وندر من وجوه الأمويين فى الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب الى صاحبها ضررا أو مشقة فى سبيل نفع الناس ..

وبيت أبى سفيان بيت سيادة مرعية لا مراء فيها ..

ولكن الحقيقة التى ينبغى أن نذكرها فى هـذا المقام أن معاوية بن أبى سفيان لم يكن ليرث شيئا من هذه السيادة التى كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله فى حروب الاسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الوارث . وروي أن امرأة استشارت النبي عليه السلام فى التزوج بمعاوية فقال لها : « انه صعلوك ! .. »

***

كذلك ينبغى أن نذكر حقيقة أخرى فى هذا المقام ، وهى أن معـاوية لم يكن من كتّاب الوحى كما أشاع خدام دولته بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبى عليه السلام فى عامة الحوائج وفى اثبات ما يجبى من الصدقات وما يقسم فى أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبى شيئا من آيات القرآن الكريم

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك حلمه فى فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجر بن عدي وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علي وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول : « ما قتلت أحدا الا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجرا فانى لا أعرف بأى ذنب قتلته .. »

وأم يزيد هى ميسون بنت مجدل الكلبية من كرائم بني كلب المعرقات فى النسب ، وهى التى كرهت العيش مع معاوية فى دمشق وقالت تتشوق الى عيش البادية :

للبس عباءة وتقر عينى ... أحب الىَّ من لبس الشفوف

وبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب الىَّ من قصر منيف ..

ومن هذه الأبيات قولها :

وخرق من بني عمي فقير ... أحب اليَّ من علج عنيف !..

فأرسلها وابنها يزيد الى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه بعيدا عن أبيه ..

***

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف فى أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقي من العزيمة فيهم ..

فكان ما استفاده من بادية بني كليب بلاغة الفصحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل ، ورياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب

وهذه صفات فى الرجل القوي تزينه وتشحذ قواه ، ولكنها فى أعقاب السلالات ــ أو عكارة البيت كما يقال بين العامة ــ مدعاة الى الاغراق فى اللهو والولع بالفراغ لأنها هى عنده كل شىء وليست مدداً لغيرها من كبار الهمم وعظائم الهموم

وهكذا انقلبت تلك الصفات فى يزيد من المزية الى النقيصة .. فكان كلفه بالشعر الفصيح مغرياً له بمعاشرة الشعراء والندماء فى مجالس

الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرّادين والفهّادين ، فكان له قرد يدعوه « أبا قيس » يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه اتاناً فى السباق ويحرص على أن يراه سابقا مُجَلِّياً على الجياد ، وفى ذلك يقول يزيد كما جاء فى بعض الروايات :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها ان سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به
جياد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغاً في المذمة حين قال فيما نسب اليه : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء . ان رجلا ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً »

***

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كاجماعها على ادمانه الخمر ، وشغفه باللذات ، وتوانيه عن العظائم .. وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها اصابة الكبد من ادمان الشراب والافراط فى اللذات . ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقاً واختراعاً من الأعداء لأن الناس لم يختلقوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص ، وهما بغيضان أشد البغض الى أعداء الأمويين .. ولأن الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان

ولم يكن هذا التخلف فى يزيد من هزال فى البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذى يعتري أحيانا بقايا السلالات التى تهم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالا في الأخلاق وسقماً في الطوية .. قعد به عن العظائم مع

وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التى تزيد فى وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة . وقد أصيب في صباه بمرض خطير ــ وهو الجدري ــ بقيت آثاره فى وجهه الى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع فى البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح

***

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهواً وفراغاً ، كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق اليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعا عن دينه ودنياه

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف الى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعهم عن بلاد الاسلام ــ أو بلاد الدولة الأموية ــ تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن فى طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما ان أبالي بما لاقت جموعهم
بالفرقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً
بدير مُرَّانَ عندي أم كلثوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرأ عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله في خلواته

***

ومن أعجب عجائب المناقضة التي تمتُّ فى كل شيء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى فى تلك الخصال التى تأتي بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزيد السن وسابقة الميلاد

فلما تنازعا البيعة كان الحسين فى السابعة والخمسين مكتمل القوة ناضج العقل وفى المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد فى نحو الرابعة

والثلاثين لم يمارس منشئون الرعاة ولا الرعية ماينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء

ومزية السن هـذه قد يطول فيها الأخـذ والرد بين أبناء العصـور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول فى أمة العرب حيث نشـأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الأعمار .. وهـذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التى تعلو بصاحبها فى الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء العزيمة ..

كذلك لا يقال ان « الوراثة المشروعة » فى الممالك كان لها شأن يرجح بيزيد على الحسين فى ميزان العروبة والاسلام . فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سمّاها المسلمون فى ذلك الزمان ، ولم يكن معقولا أن العرب فى صدر الاسلام يوجبون طاعة يزيد لأنه ابن معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبي في أمر الخلافة لأنهم قرابة محمد عليه السلام

فقد شاءت عجائب التاريخ إذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضيـة تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضحه قط فى أمثالها من القضايا ، وقد وجب أن ينخذل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التى أعانته وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله .. ولئن كان فى تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكونن هى عصبية القبيلة من بنى أمية ، وهى هنا نزعة مواربة تعارض الايمان الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس

***

لهذا شك بعض الناس فى اسلام ذلك الجيل من الأمويين ، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك فى صدق دين أبي سفيان لأن أخباره فى الاسلام تحتمل التأويلين ، ولكن معاوية كان يؤدي الفرائض ويتبرك بتراث النبي ويوصي أن تدفن معه أظافره التي حفظها الى يوم وفاته . وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثاني على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشيء في بيت مدخول

الاسلام ، يتصارح أهله أحياناً بما ينم على الكفر به أو التردد فيه

إنما هي الأثرة ، ثم الخرق في السياسة ، ثم التمادي في الخرق مع استثارة العناد والعداء .. وفي تلك الاثرة ولواحقها ما ينشيء المقابلة من أحد طرفيها في هذه الخصومة ، ويتم المناظرة في شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين . ونعني بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين واليزيد الا المثالان الشاخصان منهما للعيان.

رِجَالُ المُعَسْكَرَيْنِ

كان الحسين فى طريقه الى الكوفة ــ يوم دعاه شيعته اليها ــ يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بنى أمية ، وقلما اختلفوا فى الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة ــ والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت ــ فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

وقال له مجمع بن عبيد العامرى : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك »

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد ، فان الناس جميعا كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن على ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بنى أمية ، فهم اذن عليه بالسيوف التى تشهرها الأيدى دون القلوب

وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بنى أمية ..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسينا ولا ينصرون الأمويين .. أو كانوا يصانعون الأمويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين

ومن هؤلاء هانىء بن عروة من كبار الزعماء فى قبائل كندة ، وشريك ابن الأعور ، وسليمان بن صرد الخزاعى ، وكلاهما من ذوى الشرف والدين

بل كان من العاملين لبنى أمية من يخزه ضميره اذا بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بنى أمية ليلوذ بالمعسكر الذى كتب عليه الموت

والبلاء . كما فعل الحر بن يزيد الرياحي فى كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » . فلما قال : « نعم » ترك الجيش الأموى وذهب يقترب من الحسين حتى داناه فقال له : « جعلت فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجعت بك فى هـذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وانى تائب الى الله مما صنعت ، فهل ترى لى من توبة ؟ »

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! »

***

فمجمل ما يقال على التحقيق انه لم يكن فى معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين الا وهو طامع فى مال ، مستميت فى طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالى بشىء منها فى سبيل الحطام

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوى الرأى كعمرو بن العاص ، والمغيرة ابن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة عروش ..

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به المطامع ويتحللون من التأثيم ..

لكن هؤلاء بادوا جميعا فى حياة معاوية ، ولم يبق ليزيد مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة العروش ، وانما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر فرحين ..

فكان أعوان معاوية ساسة وذوى مشورة ..

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد فى صيد كبير ..

وكانوا فى خلائقهم البدنية على المثال الذى يعهد فى هذه الطغمة من

النـاس ، ونعنى به مثال المسخاء المشوهين .. أولئـك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة ، فاذا بهم يفرغون حقدهم فى عدائه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فاذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذى لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعا هم شمر بن ذى الجوشن ، ومسلم بن عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد ابن أبى وقاص ..

فشمر بن ذى الجوشن كان أبرص كريه المنظر قبيح الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجى ليجعله حجة يحارب بها عليا وأبناءه : ولكنه لا يتخذه حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه .. كأنه يتخـذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحقد فى حضرة المال

***

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة فى مسلاخ انسان

« وكان أعور أمغر ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل اذا مشى »

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، انه أباح المدينة فى حرم النبى عليه السلام ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت الأقدام فى الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على انه عبد قن لأمير المؤمنين .. !

وانطلق جنده فى المدينة الى جوار قبر النبى يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتلى فى تقدير الزهرى سبعمائة من وجوه النـاس وعشرة آلاف من الموالى . ثم كتب الى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهلل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم ... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين الا فى مسجدهم !.. بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم ... وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم

واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم وانتهبناها ثلاثا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بنى الشهيد عثمان بن عفان فى حرز وأمان ، والحمد لله الذى شفا صدرى من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديما ما طغوا . أكتب هذا الى أمير المؤمنين وأنا فى منزل سعيد بن العاص مدنفا مريضا ما أرانى الا لما بى .. فما كنت أبالى متى مت بعد يومى هذا ... »

***

وكل هذا الحقد المتأجج فى هذه الطوية العفنة انما هو الحقد فى طبائع المسخاء الشائهين ... يوهم نفسه انه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد ..

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب فى قريش ، لأن أباه زيادا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه . ثم ألحقه معاوية بأبى سفيان لأن أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغيا فجاءوه بجارية تدعى سمية . فقالت له بعد مولد زياد انها حملت به فى تلك الليلة ..

وكانت أم عبيدالله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعيرونه بها وينسبونه اليها ، ومن عوارض المسخ فيه — وهى عوارض لها فى نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة — انه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية ..

فكان اذا عاب الحرورى من الخوارج، قال : « هرورى » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول اشهروا سيوفكم ، فقال افتحوا سيوفكم .. فهجاه يزيد بن مفرغ قائلا :

ويوم فتحت سيفك من بعيد
أضعت وكل أمرك للضياع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدى والأرجل والأمر بالقتل فى ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففى ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق

مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل النفس التى حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا »

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيد الله بن زياد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ فى شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد يبغضه ويبغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل فى الدعوة الى بيعة يزيد ، فكان عبد الله من ثم حريصا على دفع الشبهة والغلو فى اثبات الولاء للعهد الجديد ..

والذين لم يمسخوا فى جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد ابن معاوية ، كان الطمع فى المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس فى الحقائق..

***

ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى أطاع عبيد الله ابن زياد فى وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية فى يديه

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الرى ، وهى درة التاج فى ملك الأكاسرة الأقدمين . وكان يتطلع اليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب اليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدرى وانى لحائر
أفكر فى أمرى على خطرين
أأترك ملك الرى والرى منيتى
أم أرجع مأثوما بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها
حجاب ، وملك الرى قرة عينى

فان لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهى ولا شك من لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه ..

ومن الواقع الذى لا شبهة فيه أيضا ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز ، فهو الذى ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثث القتلى التى لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لمحنها على جانب الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم تدعيم سلطان ، ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما فى أيديهم من أموال ووعود .. وتسمى مهمتهم مذبحة طائشة لا يبالى من يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب ..

***

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانا له فى ملكه ، قضى عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء ، والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..

وهكذا كان ليزيد أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المال

وكان للحسين أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح ..

وهى اذن حرب جلادين وشهداء ..

الحسين في مكة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك الا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير فى مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له فى حياة معاوية ..

وكان الوليد بن عقبة بن أبى سفيان والى معاوية يومئذ على المدينة .. فلما جاءه كتاب يزيد بنعى أبيه ، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذا شديدا ليس فيه رخصة » دعا اليه بمروان بن الحكم ، فأشار عليه بمشورته التى جمعت بين الاخلاص وسوء النية .. وفحواها أن يبعث الى الحسين وابن الزبير ، فان بايعا والا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الاشارة اليه فى محضر مروان ، اذ عاد الحسين الى بيته .. وقد عول على ترك المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله .. فخرج منها ليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، ولزم فى مسيره الى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه كما فعل ابن الزبير مخافة الطلب من ورائه فصحت فى الرجلين فراسة معاوية فى هذا الأمر الصغير ، كما صحت فى غيره من كبار الأمور ..

وانصرف الناس فى مكة الى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ، ومنهم ابن الزبير . فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه فى صباحه ومسائه ، يتعرف رأيه وما نمى اليه من آراء الناس فى الحجاز ، والعراق ، وسائر الأقطار الاسلامية

فلبث الحسين فى مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين الى الظهور وطلب البيعة ، ولا سيما أهل الكوفة وما جاورها .. فقد كتبوا اليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصرونك ،

وألحوا فى الكتابة يستعجلونه الظهور

وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتتابعات ، فبدا له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعهم من قريب ..

وآثر أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب يمهد له طريق البيعة ان رأى فيها محلا لتمهيد ، وكتب الى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتابا يقول فيه : « أما بعد ، فقد أتتنى كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومى عليكم ، وقد بعثت اليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب الى بحالكم وأمركم ورأيكم .. فان كتب الى أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت فى كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا ان شاء الله . فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام »

***

ثم بلغ الحسين أن مسلما قد نزل الكوفة ، فاجتمع على بيعته للحسين اثنا عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا ، فرأى أن يبادر اليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا فى مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح بالمسير الى جهة غير جهة العراق

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى — وهو بعد فى المدينة — أن يبعث رسله الى الأمصار ويدعوهم الى مبايعته قبل قتال يزيد فان أجمعوا على بيعته فذاك ، وان اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقص الله بذلك دينه ولا عقله » ..

وكان عبد الله ابن الزبير يقول له : « ان شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك ، وان لم تشأ البيعة بالحجاز تولينى أنا البيعة فتطاع ولا تعصى »

ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين ..

ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهاني . قال : « ان عبد الله ابن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب اليه من خروجه الى العراق طمعا فى الوثوب بالحجاز .. لأن ذلك لايتم له الا بعد خروج الحسين ، فلقيه وقال له : « على أى شيء عزمت يا أبا عبد الله ؟ »

فأخبره برأيه فى اتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : « فما يحبسك ؟.. فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت فى شيء »

***

ولعل أنصح الناس له فى هذه المسألة كان عبد الله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهاء .. سأله :

ـ ان الناس أرجفوا أنك سائر الى العراق ، فما أنت صانع ؟ ..

قال :

ـ قد أجمعت السير فى أحد يومى هذين

فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :

ـ انى أتخوف عليك فى هـذا الوجه الهلاك . ان أهل العراق قوم غدر . أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن ، فان بها حصونا وشعابا ولأبيك بها شيعة

فقال له الحسين :

ـ يا ابن عم !.. انى أعلم انك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير

قال ابن عباس :

ـ ان كنت لابد فاعلا ، فلا تخرج أحدا من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون اليك كما قتل ابن عفان

السفر الى العراق

وخرج فى الثامن من ذى الحجة لا ينتظر العيد بمكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته الى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان ..

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه الناس ألوفا ألوفا يبايعون الحسين على يديه .. وبلغوا ثمانية عشر ألفا فى تقدير ابن كثير وثلاثين ألفا فى تقدير ابن قتيبة

وهال الأمر النعمان بن بشير — والى الكوفة — فحار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يوما بعد يوم ، فصعد المنبر وخطب الناس معلنا أنه لا يقاتل الا من قاتله ولا يثب الا على من وثب عليه ..

***

وتسابق أنصار بنى أمية الى يزيد ينقلون اليه ما يجرى بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومى مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولى الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة الى البصرة التى كان يتولاها فى ذلك الحين

وقدم عبيد لله الى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع اليه عرفاء المدينة — أى مشايخ أحيائها — فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن فى أحيائهم من « طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب » ، وأنذرهم « أيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه اليه ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء »

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم . فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانىء بن عروة ، فقيل له انه مريض لايبرح داره .. وكان يتعلل بالمرض تجنبا للقائه والسلام عليه

فذهب عبيد الله اليه يعوده ويتلطف اليه ، وجاء فى بعض الروايات انه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى بيت هانىء ، فأبى أن يغتاله وهو آمن فى بيت مريض يعوده ..

وقال ابن كثير ما فحواه انهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى

دار شريك بن الأعور ، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده .. فبعث الى هانىء بن عروة يقول له : « ابعث مسلم بن عقيل يكون فى دارى ليقتل عبيد الله اذا جاء يعودنى » ... فتحين مسلم عن قتله ، وسأله شريك : « ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) ، وكرهت أن أقتله فى بيتك » ... قال شريك : « أما لو قتلته لجلست فى الثغر لايستعدى به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة ، ولكنت تقتله ظالما فاجرا »

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام ..

***

وتضطرب الأقاويل فى وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها .. ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد فى مغالبة مسلم وشيعته ، وانه هرب مرة من المسجد لأن الناس بصروا بمسلم مقبلا فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه ..

واجتمع الى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادى فى الناس بشعار الشيعة : « يا منصور !.. أمت » . ثم تقدم الى قصر الامارة فى تعبئة كتعبئة الجيش ..

ولم يكن فى القصر الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر اليأس عبيد الله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه . ولكنه تحيل بما فى وسع المستميت من حيلة هى على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفذ أنصاره الى كل صوب فى المدينة يعدون ويتوعدون .. وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البرىء بالمذنب والغائب بالشاهد ويبذلون المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد الى حين ..

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم ابن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا الى دورهم أو يدخلوا بهم فى زمرة عبيد الله ..

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فاذا هو فى خمسمائة من أولئك الآلاف الأربعة .. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه فى الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقى وحيدا فى المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوى اليه

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقى من تلك الجموع .. فلم يروا أحدا ولم يسمعوا صوتا . فخيل اليهم أنها مكيدة حرب وان القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن الى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه ، فدعا الى الصلاة الجامعة وأمر المنادين فى أرجاء الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب — رؤوس العرفاء — والمقاتلة ، صلى العشاء الا فى المسجد »

***

وأقام الحراس خلفه وهو يصلى بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلا : « برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل فى داره »

وصاح فى رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير !.. ثكلتك أمك ان ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتنى به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواه السكك .. وأصبح غدا فاستبرىء الدور وجس خلالها حتى تأتينى بهذا الرجل .. »

وما هى الا سويعات حتى جىء بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع . ووصل الى القصر جريحا مجهدا ظمآن فأهوى الى قلة عند

الباب فيها ماء بارد ، فقال له أحد أصحاب عبيد الله : « أتراها ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم فى نار جهنم ! »

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه بقلة عليها منديل ومعها قدح فصب منها فى القدح وأدناه منه ، فاذا هو ينفث الدم فى القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه ، فحمد الله وقال : « لو كان لى من الرزق المقسوم لشربته »

وأدخلوه على عبيد الله فنظر الى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص ، فناشده القرابة ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته . فأبى أن يصغى اليه !.. ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم : « ان على بالكوفة دينا استدنته سبعمائة درهم ، فبع سيفى ودرعى فاقضها عنى ، وابعث الى الحسين من يرده ، فانى قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه الا مقبلا .. »

فعاد عمر الى عبيد الله فأفشى له السر الذى ناجاه به وأوصاه أن يكتمه . ثم دعا عبيد الله بالحرسى الذى قاومه مسلم وضربه على رأسه ـ واسمه بكير بن حمران ـ فأسلم مسلما اليه وقال له :

ـ لتكن أنت الذى تضرب عنقه

وصعدوا به الى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه ، فسقط رأسه الى الرحبة وألقيت جثته الى الناس . ثم أرسل برأسه الى يزيد مع رؤوس سراة فى المدينة كان مسلم يأوى اليهم أول مقدمه اليها ، ومنهم هانىء بن عروة الذى تقدمت الاشارة اليه ...

طلائع الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل فى التاسع من ذى الحجة ليلة العيد .. وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتله الا وهو فى آخر الطريق ..

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب الى أهل الكوفة كتابا مع قيس بن سهر الصيـداوى يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه اليه .. فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن على » وينهى الناس أن يطيعوه

فصعد قيس وقال : « أيها الناس .. ان هذا الحسين بن على خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله اليكم ! وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه ، والعنوا عبد الله بن زياد وأباه .. »

فما كان منهم الا أن قذفوا به من حالق ، فمات ..

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر .. فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبد الله بن زياد ، فألقوا به من شرفات القصر الى الارض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه ..

وجعل الحسين كلما سأل قادما من العراق أنبأه بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاته ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع ، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليـك أسرع .. »

ووثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدا الا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه ان تقدم ولم ينصرف لشأنه .. فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلنا شيعتنا .. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليهم منا ذمام .. »

فتفرقوا الا أهل بيته وقليلا ممن تبعوه فى الطريق ..

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذى حسم بطلائع جيش عبد الله يقودها الحر ابن يزيد التميمى اليربوعى فى ألف فارس ، أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله فى الكوفة

فأمر الحسين مؤذنه بالأذان لصلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

ـ أيها الناس انى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا امام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق . فقد جئتكم .. فان تعطونى ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم لقدومى كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه ..

فلم يجبه أحد ..

فقال للمؤذن :

ـ أقم الصلاة !

وسأل الحر :

ـ أتريد أن تصلى أنت بأصحابك وأصلي بأصحابى ؟

فقال الحر :

ـ بل نصلى جميعا بصلاتك

***

ثم تياسر الحسين الى طريق العذيب ، فبلغها وفرسان عبيد الله يلازمونه ويصرون على أخذه الى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم، فأقبل عليهم يعظهم وهم يصغون اليه فقال :

« أيها الناس ! .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل فى عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله . ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة

الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفئ ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيرى ..

« وقد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم وانكم لا تسلموني ولا تخذلونني ، فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم وأهلى من أهلكم ، فلكم فى أسوة . وان لم تفعلوا ونقضتم عهدى ، وخلعتم بيعتى ، فلعمرى ما هى لكم بنكير . والمغرور من اغتر بكم . فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم .. ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم ، والسلام »

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه اليه يحذره العاقبة وينبئه: « لئن قاتلت لتقتلن ! »

فصاح به الحسين :

ــ أبالموت تخوفنى ! .. ما أدرى ما أقول لك .. ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله ، فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأنشد :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى
اذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وخالف مثبورا وفارق مجرما
فان عشت لم أندم ، وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

***

ثم سار الركبان ينظر بعضهما الى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فرده نحو الكوفة . حتى نزلا بنينوى ، فاذا راكب مقبل عليه بالسلاح ، يحيى الحر ولا يحيى الحسين ، ثم أسلم الحر كتابا من عبيد الله يقول فيه : «أما بعد فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله الا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء .. وقد

أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري والسلام »

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيدالله بن زياد ويخشى رقيبه الذي أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين ــ زهير بن القين :

ــ انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه . يا ابن رسول الله ! .. ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم . فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به . فهلم نناجز هؤلاء

فأعرض الحسين عن مشورته وقال :

ــ انى أكره أن أبدأهم بقتال

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبى بأرض همذان ، فجمع لهم عبيدالله بن زياد جيشا عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى يذكر الديلم اسم أبيه ــ سعد ــ فاتح بلادهم ، وقد وعد بولاية الرى بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم الحسين الى العراق قال عبيدالله لعمر :

ــ نفرغ من الحسين ثم تسير الى عملك

فاستعفاه ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :

ــ نعم نعفيك على أن ترد الينا عهدنا ..

فاستمهله حتى يراجع نصحاءه .. فنصح له ابن أخته بن المغيرة بن شعبه ــ وهو من أكبر أعوان معاوية ــ ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :

ــ والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين

***

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى اذا أصبح ذهب الى ابن زياد ، فاقترح عليه أن يبعث الى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يغنى فى الحرب عنهم .. فأبى ابن زياد الا أن يسير الى الحسين أو ينزل عن ولاية

الري .. فسار على مضض وجنــوده متثاقلون متحرجون ، الا زعانف المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة .. فندب عبيد الله رجلا من أعوانه ــ هو سعد بن عبد الرحمن المنقرى ــ ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جيء به وقيل انه من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم الى المسير

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكربلاء على نحو من خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الغربى من الكوفة . نزل بها فى الثانى من المحرم سنة احدى وستين ..

وخلا الجو فى الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه فى اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر فى قضية الحسين دون مراجعة من ذى سلطان .. وهما عبيدالله بن زياد ، وشمر بن ذى الجوشن

عبيدالله المغموز النسب الذى لا يشغله شىء ، كمــا يشغله التشفى لنسبه المغموز من رجل هو بلا مراء أعرق العرب نسبا فى الجاهلية والاسلام .. فليس أشهى اليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره فيها بذله ورغمه ..

شمر بن ذى الجوشن

وشمر بن ذى الجوشن الأبرص الكريه الذى يمضه من الحسين مايمض كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم

وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ، فهما فى هذه الخلة متناصحان متفاهمان .. !

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى يزيد ويمهد له الولاء فى قلوب المســلمين ولو الى حين .. لولا ذلك الضــغن الممتزج بالخليقة الذى هو كسكر المخمور لا موضع معه لرأى مصيب ، ولا لتفكير فى عاقبة بعيدة أو قريبة ..

فالحسين فى أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وابقائه بأعينهم فى مكان

ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة

لكنهما لم يفكرا فى أيسر شىء ولا أنفع شىء للدولة التى يخدمانها .. وانما فكرا فى النسب المغموز والصورة الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير ارغام الحسين واشهاد الدنيا كلها على ارغامه

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه ان الحسين « أعطانى أن يرجع الى المكان الذى أقبل منه أو أن نسيره الى أى ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتى يزيد فيضع يده فى يده »

والذى نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده فى يده .. لأنه لو قبل ذلك لبايع فى مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به الى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين فى خروجه الى العراق قد نفوا ما جاء فى ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول : « صحبت الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته الى الناس الى يوم قتله .. فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده فى يد يزيد ولا أن يسيروه الى ثغر من الثغور ، ولكنه قال : « دعونى أرجع الى المكان الذى أقبلت منه أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر الى ما يصير اليه أمر الناس »

***

ولعل عمر بن سعد قد تجوز فى نقل كلام الحسين عمدا ليأذنوا له فى حمله الى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتلته وما تجر اليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم فى مناهضة الدولة الأموية ..

وأيا كانت الحقيقة فى هذه الدعوى فهى تكبر مأثمة عبيد الله وشمر ولا تنقص منها . ولقد كانا على العهد بمثليهما .. كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذى فطر عليه ،

فلا يصدر منهما الا ما يوائم لئيمين لا يتفقان على خير ..

وكأنما جنح عبيد الله الى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد، فابتدره شمر ينهاه ويجنح الى الشدة والاعتساف ، فقال له :

ـ أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيدالله ليخلفه فى القيادة ثم يخلفه فى الولاية ، فذكر لعبيدالله أن الحسين وعمر يتحـدثان عامة الليل بين المعسكرين ..

فعدل عبيد الله الى رأى شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر ان هو تردد فى اكراه الحسين على المسير الى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل . وكتب الى عمر يقول له :

« أما بعد .. فانى لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له عندى شافعا ... انظر فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم الى مسلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون . فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع ظلوم.. فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيـع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر والسلام »

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات ..

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا طالب مروءة ، ومضت مئـات السنين وهى لا تمحو آثار تلك الأيام فى تاريخ الشرق والاسلام ..

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة الى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية .. لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الصواب فيها — ان أصابت — من نحو واحد ينحصر القول فيه، ولا يأتى الخطأ فيها — ان أخطأت — من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه. وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب الى النقيضين ..

هى حركة لا يأتى بها الا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق ..

هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة .. لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال ..

هى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساومى التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب ايمان الناس به دون غيره .. فان قبلته الدنيا قبلها وان لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى اليه ..

هى حركة لا تقاس اذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات ، ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان ..

ولا ننسى أن السنين الستين التى انقضت بعد حركة الحسين ، قد

انقضت فى ظل دولة تقوم على تخطئته فى كل شيء وتصويب مقاتليه فى كل شيء ..

***

ان القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة ، والتماس العذر له معناه القاء الذنب عليها . وليس يخاف على أحـد كيف ينسى الحياة وتبتذل القرائح أحيانا فى تنزيه السلطان القـائم وتأثيم السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه اذن بالأمر الذى يرجع فيه الى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفا غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء

انما الحكم فى صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية التى تدور على طبيعة الانسان الباقية ، والنتائج المقررة التى مثلت للعيان باتفاق الأقوال

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين فى خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول انه قد أصاب ..

أصاب اذا نظرنا الى بواعثه النفسية التى تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ..

وأصاب اذا نظرنا الى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة ..

فما هى البواعث النفسية التى قامت بنفس الحسين يوم دعى فى المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هى بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله الى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبنى الانسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذى أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الانسان على ذلك الخلق الذى يرضى به يزيد ..

فأول ما ينبغى أن نذكره لفهم البواعث النفسـية التى خامرت نفس الحسين فى تلك المحنة الأليمة ، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التى يضمن لها الدوام فى تقدير صحيح ..

فهى بيعة نشأت فى مهد الدس والتمليق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة فى ذلك التشجيع

***

كان المغيرة بن شعبة واليا لمعاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله واسناد ولايته الى سعيد بن العاص جريا على عادته فى اضعاف الولاة قبـل تمكنهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

ـ لا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة . فقال للمغيرة :

ـ أو ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة انه ليس بالعسير ، اذا أراده أبوه ..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هــذا أن فرصته سانحة وانه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه باعانته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة الى أن يقضى فى أمر هــذه البيعة ، وله فى التمهيد لها نصيب ..

فلما لقى معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

ـ قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

ـ ومن لى بذلك ؟ ..

قال :

ـ أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك

فرده معاوية الى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتعجلوا باظهار هذه النية .. ثم استشار زياد بن أبى سفيان ، فأطلع هـذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول :

ـ ان أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة النـاس ويرجو طاعتهم .. ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد .. فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فان دركا فى تأخير خير من فوت فى عجلة ..

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يبغضه فى ابنه » . وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك فى البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وانك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ..

***

وقالوا ان يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وان معاوية أخذ برأى زياد فى التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد ..

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه . فكانت امرأته « فاختة » بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو آثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

ـ ما أشـار به عليك المغيرة ؟ .. أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم

واشتدت نقمة مروان بن الحكم ـ وهو أقرب الأقرباء الى معاوية ـ حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهـد له من أهل المدينة ، وكتب الى معاوية : « ان قومك قد أبوا اجابتك الى بيعتك » . فعزله

معاوية من ولاية المدينة وولاها سعيد بن العاص . فأوشك مروان أن يثور ويعلن الخروج وذهب الى أخواله من بنى كنانة فنصروه وقالوا له :

ـ نحن نبلك فى يدك وسيفك فى قرابك . فمن رميته بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه .. الرأى رأيك ، ونحن طوع يمينك

ثم أقبل مروان فى وفد منهم كثير الى دمشق ، فذهب الى قصر معاوية وقد أذن للناس ، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى معه فضربوه واقتحموا الباب . ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول . فخاف معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ، وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته

***

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بنى أمية من بيعة يزيد ، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذى تذرع معاوية الى الخلافة باسمه . فقال لمعاوية :

ـ يا أمير المؤمنين .. علام تبايع ليزيد وتتركنى ! .. فوالله لتعلم أن أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه ، وانك انما نلت ما نلت بأبى

فسرّى معاوية عنه .. وقال له ضاحكا هاشا :

ـ يا ابن أخى ! .. أما قولك ان أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية .. وأما قولك ان أمك خير من أمّه ، ففضل قرشية على كلبية فضل بيّن ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فانما الملك يؤتيه الله من يشاء .. قتل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالا مثلك بيزيد . ولكن دعنى من هذا القول وسلنى أعطك ، وولاه خراسان

فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملا فى الخلافة بعد معاوية ، وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء ـ وان جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن ـ لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التى تؤذن بالبقاء

وتبشره بالضمان والقرار ..

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والاكراه .. وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء ..

وظهر من اللحظات الأولى ، ان المغيرة بن شعبة كان سمسارا يصافق على ما لا يملك .. فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف فى غيرهما ، فاذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ، واذا البصرة تتلكأ فى الجواب وواليها يرجىء الأمر ويوصى بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية فى حياته ، واذا أطراف الدولة من ناحية همذان تثور ، واذا بالحجاز يستعصى على بنى أمية سنوات ، واذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين . ولو وجدت خارجا يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز ..

بل يجوز أن يقال — مما ظهر فى حركة الحسين كل الظهور — أن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين . فقد كانوا يتحرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، الا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب

والحوادث التى تلت حركة الحسين الى ختام عهد يزيد أدل مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه ، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى بقية حياته وبعد موته بسنين

ونحن اليوم نعلن من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر فى عهد يزيد أو بعد عهده ، فيخيل الينا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم يكن بها من خفاء . ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء ألا يروا فيها طوالع ملك تعنو له الرؤوس ويرجى له طول البقاء

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد فى الخلافة رضى المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموئل والدولة ، وكان المسلمون قد توافوا على اختياره لحبهم اياه ، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم الى سياسته واعتمادهم على صلاحه واصلاحه ..

ولكنه على نقيض ذلك ، كان كما علمنا رجلا هازلا فى أحوج الدول الى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه اصلاح . وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية أو المصانعة ، ولو قبضوا مثل هـذا الثمن ليبايعوا وليا للعهد شرا من يزيد لما همهم أن يبايعوه وان تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق

وأعجب شيء أن يطلب الى حسين بن على أن يبايع مثـل هـذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق فى الخلافة وصاحب القدرة عليها . ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه ، أو الخروج ! ..لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه

***

ان بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان فى كف الميزان

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيـدة الدينيـة فى نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وانه كان رجلا يؤمن أقوى الايمان بأحكام الاسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأمة العربية قاطبة فى حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه سبط محمد .. فمن كان اسلامه هداية نفس فالاسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت ..

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبونه ويسبون أباه على المنابر ، ولم يجسر أحـد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين فى أصغر صغيرة يباشرها المرء سرا أو علانية ، وحاولوا أن يعيبـوه بشيء غير خروجـه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة الصنائع والأجراء دون ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرا على الدين فى رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين ؟

.كيف يسام أن يرشح للامامة من لا شفاعة له ولا كفاية فيه الا أنه
بن أبيه ؟ ..

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية بشئون الملك والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ماجمح وتقيم ماانحرف وتملى له فيما عجز عنه . وهذا ابنه القائم فى مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون ، الا من كان عونا على شر أو موافقا على ضلالة . فما عسى أن تكون الشهادة له بالصلاح للامامة الا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير ؟ ..

ثم هى خطوة لارجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة . فاذا بايع يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا سيما حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعلل بها المتعلل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج

فملك يزيد لم يقم على شىء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو للأمة الاسلامية . ومن طلب منه أن ينصر هذا الملك فانما يطلب منه أن ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه فى أذهان الناس بالغض من الحسين فى سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه . فكانوا يسبون عليا على المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره حيثكانوا فيقهروتهم على سبه والنيل منه بمشهد منالناس ، والا أصابهم العنت والعذاب وشهروا فى الأسواق بالصلب والهوان . فمجاراة هذه الأمور كلها فى مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد وجبت واستقرت الجيل بعد الجيل بغير أمل فى التغيير والتبديل . فمن أقر هذه السنة فى مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوما بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفا كما ازدادت حجة خصومة قوة عليه

هذه هى البواعث النفسية التى كانت تجيش فى صدر الحسين يوم دعاه

أولياء بنى أمية الى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته فى امامة المسلمين،كائنا من كان القائم بالأمر وبالغا مابلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة . وهى بواعث لا تثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه فى اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما الخروج ان كان لابد خارجا فى وقت من الأوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له ايمان ..

مصرع وانتصار

أما نتائج الحركة كلها ــ اذا نظرنا اليها نظرة واسعة ــ فهى أنجح للقضية التى كان ينصرها من مبايعة يزيد

فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات ..

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل أصابه فى كربلاء ، فلم يكد يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير

ولم تعمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة ! .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذى سكن فى جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقا الى الأسماع والقلوب

ولاصابة هذه الحركة فى نتائجها الواسعة دخل فى روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضى الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه .. فلم يخامره الشك فى مقتله ذلك العام ، ولا فى عاقبة هذه الفعلة التى ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام

فقال ماربين الألمانى فى كتابه (السياسة الاسلامية) : « ان حركة الحسين فى خروجه على يزيد انما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الاذعان وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به

النصر الآجل بعد موته ، ويحيى به قضية مخذولة ليس لهابغير ذلك حياة »

فان لم يكن رأى الكاتب حقا كله ، فبعضه على الأقل حق لاشك فيه ويصدق ذلك — فى رأينا — على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذى يرتضيه ، فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل مايحيق ببنى أمية من جراء قتله .. فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه مالم يكن نيبلغه بالنجاة من وقعة كربلاء

***

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه فى الحجاز . فقال لهم : « ان الموت حق على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطة التى لا يبالى راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء ..

لكنه لم يكن ييأس من اقناع الناس والتفاهم به منذ خطوته الأولى . ولم يعقد عزمه على ملاقاة الموت حتى ساموه الرغم ، وأبوا عليه أن ينصرف الى أى منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقا على الكره منه الى عبيد الله ابن زياد ..

وتتباين آراء المتأخرين خاصة فى خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان هو الأحزم والأكرم أم كان الأحزم والاكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له أو اعراضهم عنه وضعفهم فى تأييده.

وليس للمتأخرين أن يقضوا فى مسألة كهذه بعقولهم وعاداتهم ، لأنها مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربى وعاداته فى أشباه هذه المواقف . وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية فى البعوث التى يتصدى لها المرء متعمدا القتال دون غيره فضلا عن البعوث التى قد تشتبك فى القتال وقد تنتهى بسلام كبعثة الحسين.

فكان المقاتلون فى وقعة ذى قار يصطحبون حلائلهم وذراريهم ويقطعون وضن الرواحل — أى أحزمتها — قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معا يصطحبون الحلائل والذرارى فى غزوات النبى عليه

السلام ، وكان مع المسلمين فى حرب الروم صفوة نساء قريش وعقائل بيوتاتها ، وكان النبى عليه السلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة فى غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهى عادة عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفى معلقة ابن كلثوم اشارة مجملة الى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا

وقد كان الحسين رضى الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه ان قضى عليهم أن يخوضوه فلا يبالون مايصيبهم فى أنفسهم وفى أبنائهم وأموالهم ، لأنهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة فى يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم ، اذا غلبوه وأخفق فى مساعاته .. فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول ..

والمسلم الذى ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته ، والا فما هو بناصره على الاطلاق ، وتنقلب الآية فى حالة الخذلان ، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذى يوشك أن ينقلب عليه

صواب الشهداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز الى العراق ، كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التى تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها ..

وانها قد وصلت الى نتائجها الفعالة من حيث هى قضية عامة تتجاوز

الأفراد الى الأعقاب والأجيال ، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين. أم حربا لبنى أمية ..

انما يبدو الخطأ فى هذه الحركة حين تنظر اليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهى زاوية العمل الفردى الذى يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين اليه

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة ..

وعلة ذلك ظاهرة قريبة ..

وهى أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التى يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة .. وهنا غلطة الشهداء ..

بل قل : هنا صواب الشهداء ..

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب لأن الواقع يخذله ولا يجرى معه الى مرماه ؟

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب طباعها » ويصدق الخير فى طبيعة الانسان والخير عزيز والدنيا به شحيحة ؟

منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تسنى خلافة الراشـدين ، أو حيث تتسنى الدولة الدنيـوية التى يضن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون اليها بوسائلها

فكانت عنايته بالدعوة والاقناع أعظم جدا من عنايته بالتنظيم والالزام

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدين من المال حتى احتاج فيها أن يقترض.سبعمائة درهم هى التى أوصى بردها الى أصحابها قبل قتله ..

وتلك عقبة من العقبات التى تعوق الدعوات الكبار ، ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل ..

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية ، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه . فلعله كان ميسورا له بعد أن تجمع حوله الأنصار وبايع الحسين على يديه ثلاثون ألفا كما جاء فى بعض الروايات . ففى تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالى الأموى ويستولى عليه وينشىء الحكومة الحسينية فيه . ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعاة الى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاة ويحشد الأجناد ..

فاذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا الى الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سيق عبيد الله هذا فى يوم من الأيام الى يديه وكان فى وسعه أن يبطش به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرا من أعنف أنصاره ..

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه فى رأيه ، أو لأنه اعتقد أن الحق بيّن وأن الباطل بيّن .. فلا حاجة به بعد التمييز بينهما الى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات ..

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه فى الخلافة قائم على شىء واحد وهو اقبال الناس اليه طائعين ومبايعتهم اياه مختارين . فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفا فى اليقين ، فالرأى عنده أن يكتب الى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا اليه ..

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن ، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق ..

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ..

لم يكن الصراع بين على ومعاوية على هذا الوضوح الذى لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة ...

لكنه فى بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لذى عينين

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد الفداء فى سبيل العقيدة والايمان .. بعد العهد الذى كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه ان خالفوه فى أمر الاسلام .. بعد العهد الذى كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين وفى أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعاقل والأزواد ... بعد العهد الذى تغير فيه الناس ، وخيل الى من كان يعهدهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون ..

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين وينتصر يزيد فى عالم سهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها الحسين فى ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال : « الناس عبيد الدنيا . والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون »

ان الطبائع الأرضية لا تنخدع فى صلاح الناس ولا تعجب هذا العجب لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود

انها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق ، انها تؤثر القنديل الخافت فى يدها على الكوكب اللامع فى السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع فى السماء ، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد

انها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظمأ الفؤاد ولا تنظر الى السراب ..

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء ..
طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات ..
وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة
وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين
ولست موازين المساومة بالموازين الفذة التي يصلح عليها أمـر بنى الانسان ، فان بنى الانسان ما بهم غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وانهم لهم الشهداء
وانهم لعلى صواب فى المدى البعيد ، وان كانوا على خطأ فى المدى القريب .. مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والأخلاد ..
من هؤلاء كان الحسين رضى الله عنه ، بل هو أبو الشـهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر أجمعين
فلا جرم يصيب فى المدى البعيد ويخطىء فى المدى القريب .. مـدى المنفعة التى تناله هو فى معيشة يومه ، وهو المدى الذى لا يأسف عليه ولا ينص الركاب اليه ..

الحرم المقدس

عرفت قديما باسم « كوربابل » ثم صحفت الى كربلاء ، فجعلها هـذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء ، كما رسمها بعض الشعراء ..

ولم يكن لها ما تذكر به فى أقرب جيرة لها فضلا عن أرجاء الدنيـا البعيدة منها .. فليس لها من موقعها ، ولا من تربتها ، ولا من حوادثها ، ما يغرى أحدا برؤيتها ثم يثبت فى ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها

فلعل الزمن كان خليقا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرا بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود .. الا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل فى زمرة تلك الجيرة بغير حساب

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق اليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله . ومن حقه أن يقترن بتاريخ بنى الانسان حيثما عرفت لهذا الانسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد

فهى اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غيرالمسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارا لكل آدمى يعرف لبنى نوعه نصيبا من القداسـة وحظا من الفضيلة ، لأننا لا نذكر بقعة من بقـاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التى اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التى بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم .. فهى مقرونة فى الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه فى تلك البقعة الجرداء

وليس فى نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الايمان والفداء والايثار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد فى المحنة والأنفة من الضيم والشجاعة فى وجه الموت المحتوم .. وهى — ومثيلات لها من طرازها — هى التى تجلت فى حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط فى موطن من المواطن تجليها فى تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون فى جانب منها أشرف ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها فى الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات ..

وحسبك من تقويم الأخلاق فى تلك النفوس ، انه ما من أحد قتل فى كربلاء الا كان فى وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة ، ولكنهم جميعا آثروا الموت عطاشا جياعا مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة ..

أو حسبك من تقويم الأخلاق فى نفس قائدها وقدوتها أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم ، ولن يبتعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلازمه الا أن يكون هو أهلا للاستشهاد فى سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون فى سليقة الشهيد الذى يأتم به الشهداء

نموت معك

أقبل الفتى الصغير على بن الحسين على أبيه .. وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

— ألسنا على الحق ؟ ..

قال الوالد المنجب النجيب :

— بلى والذى يرجع اليه العباد ..

فقال الفتى :

— يا أبه !.. فاذن لا نبالى !..

وهكذا كانوا جميعا لا يبالون ما يلقون ، ما علموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون ..

وأراد الحسين — وقد علم أن التسليم لا يكون — أن يبقى للموت وحده وألا يعرض له أحدا من صحبه . فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم فى كل مرة : « لقد بررتم وعاونتم والقوم لا يريدون غيرى ولو قتلونى لم يبتغوا غيرى أحدا .. فاذا جنكم الليل فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم » ..

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم اياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات والبقاء . وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام .. ماذا نقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أنقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضا للنبل ودريئة للرماح وجزرا للسباع ، وفررنا عنه رغبة فى الحياة ؟ معاذ الله .. بل نحيا بحياتك ونموت معك .. »

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه ايثارا لنجاتهم ونجاته . ولو خادعوا أنفسهم قليلا لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعا على ذلك

ولم يكونوا جميعا من ذوى عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التى ترهب العار ولا ترهب الموت . فقال له زهير بن القين : « والله لوددت أنى قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك الفشل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك »

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلى عنك ؟ وبم نعتذر الى الله فى أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن فى صدورهم برمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى ، ولو لم يكن

معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة . والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك . وأما والله لو علمت أننى أقتل ثم أحيى ثم أحرق ثم أحيى ثم أحرق ثم أذرى ويفعل بى ذلك سبعين مرة مافارقتك حتى ألقى حمامى دونك .. »

وجىء الى رجل من أصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه فى فتنة الديلم ، فعلم أن الديلم أسروه ولا يفكون اساره بغير فداء ، فأذن له الحسين أن ينصرف وهو فى حل من بيعته ويعطيه فداء ابنه . فأبى الرجل اباء شديدا ، وقال : « عند الله أحتسبه ونفسى » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم أسأل الركبان عن خبرك .. لا يكن والله هذا أبدا » ..

***

وقد تناهت هذه المناقب الى مداها الأعلى فى نفس قائدهم الكريم .. يخيل الى الناظر فى أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت فى سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم ، فلا يدرى أكان فى شجاعته أشجع ، أم فى صبره أصبر ، أم فى كرمه أكرم ، أم فى ايمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه .. الا انه كان يوم الشجاعة لا مراء، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التى تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها . فكان الحسين — شبل على — فى شجاعته الروحية والبدنية معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء ..

ملك جأشه .. وكل شىء من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم ، ويغرى بالدعة والمجاراة ..

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه فى نضارة العمر ، يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه روية واناة ولم يملكه وثبة واثب الى الغضب أو هيجة مهتاج الى الوغى ، فكان قبل القتال وفى حومة القتال قويا بصيرا ينفض الضعف عن عزائمه ، كما ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده ، ولم يخامره الأسف قط فى ذلك الموقف المرهوب

الا من أجل أحبائه وأعـزائه الذين يراهم ويرونه ويسـمع صـيحتهم ويسمعونه . فقال وهو ينظر الى الأخبية ومن فيها : « لله در ابن عباس فيما أشار به على ! » ..

وجلس ليلة القتال فى خيمته يعالج سهاما له بين يديه ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتيـل والدهر لا يقنع بالبـديل
والأمر فى ذاك الى الجليـل وكل حى سـالك سـبيلى

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألما على ألمه . وسمعته أخته زينب ، فلم تقو على حنانها ووجلها ، وخرجت اليه من خبائها حاسرة تنادى : « وا ثكلاه ! اليوم مات جدى رسول الله وأمى فاطمة الزهراء وأبى على وأخى الحسين فليت الموت أعدمنى الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين وثمالة الباقين ! »

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذى بات عليه ، وقال لها :

ـ يا أخت ! لو ترك القطا لنام .. ولم يزل يناشدها .. ويعزيها وهو فى قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت واباء التسليم أو النزول على « حكم ابن مرجانة » كما قال .. ثم احتملها مغشيا عليها حتى أدخلها الخباء ..

***

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب وتحضر المطالب أو تغيب . وهذه الخلائق العلوية فى صدر الانسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته ، ومن الدول وما حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسى الأرض وكواكب السماء ..

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة الكبيرة التى تناقضها أتم ما يكون التناقض بين طرفين ، وتباعدها أبعـد ما تكون المسـافة بين قطبين ، فكل ما فيهـا أرضى مظلم مسف بالغ فى

الاسفاف ، وليس فيها من النفحة العلوية نصيب ..

أللمصادفات نظام وتدبير .. ؟!

نحن لا نعلم الا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينهـــا من الوشـــائج والصلات .. ولكنها ــ لذلك ــ هي الأعاجيب التي تستوقف النظـــر لعجبها العاجب ، وان لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدبير

فجيرة كربلاء كانت قديما من معاهد الايمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد واهرمان . ولكنه كان في حقيقته ضربا من المجاز وفنا من الخيال

وتشاء مصادفات التاريخ الا أن ترى هذه البقاع التي آمنت بأورمزد واهرمان حربا هي أولى أن تسمي حرب النور والظلام من حرب الحسين ومقاتليه ..

***

وهي عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الاسلام والمجوسية في تلك البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية لأن المجوسي كان يدافع شيئا ينكره .. ففي دفاعه معنى من الايمان بالواجب كما تخيله ورآه ، ولكن الجيش الذي أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشا يحارب قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه . اذ لم يكن فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفح عن عقيدة غير عقيدة الاسلام ، الا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه ، ولا نخالهم كثيرين ..

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة الأخلاق .. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون ..

ومن ثم كانوا في موقفهم ذاك ظلاما مطبقا . ليس فيه من شعور الواجب

بصيص واحد من عالم النور والفداء .. فكانوا حقا فى يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور

أقربهم الى العذر يومئـذ من اعتذر بالفرق والرهبـة لأنهم أكرهوه بالسيف على غير ما يريد .. فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء

وكان منهم أناس كتبوا الى الحسين يستدعونه الى الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عمـا ندبهم له واستعفوه ، لأن جوابهم ان سألوه فى شأن مجيئه اليهم : انى جئتكم ملبيا ما دعوتم اليه ! ..

وركب أناسا منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيمـا اقترفوه عرفانا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بنى ابان بن دارم كان يقول :

ـ قتلت شابا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود .. فما نمت ليلة منذ قتلته الا أتانى فيأخذ بتلابيبى حتى يأتى جهنم فيدفعنى فيها ، فأصبح فما يبقى أحد فى الحى الا سمع صياحى

***

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه واسود لونه ، فقال له : « ماكدت أعرفك » ، وكان يعرفه جميلا شديد البياض ..

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين فى المعمعة ، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربا بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم اياه . فاذا هم يحاربون رأيهم الذى يدينون به ، ووليهم الذى يضمرون له الحرمة والكرامة ، وفى ذلك خزيهم الأثيم

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم فى أيام كربلاء ..

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع الى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالايذاء

حيث لا تلجئه الضرورة اليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذى يموت من العطش وهو على مورد الماء بالأمر الذى يلجىء اليه الجبن أو يلجىء اليه طلب المال ، وقد حدث فى أيام كربلاء من أمثال هذا البغى اللئيم شىء كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطالبيين أو أعداء بنى أمية !

***

وينبغى أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل الى فهمه بغيره ، وهو نكسة الشر فى النفس البشرية ، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغالب عنانها حتى تعييها المغالبة فينطلق بها العنان

فالرجل الخبيث المغرق فى الخيانة قد يتصرف فى خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالى أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء . ولكن أربعة الالاف لا يتصارحون بالنذالة بينهم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون به التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علالة . وانما شأنهم فى هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما استطاعوا ليظهروا فى ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكون لحظة فى صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده ..

وتلك لجاجة المغالطة فى الشعور ..

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة ، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم .. يحاول الرجل أن يتجنب الخمر فلا يستطيع ، فاذا هو قد خلع العذار وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء »

ونحب المرأة أن تستحيى وتتوارى من المسبة فى هواها ، ثم يغلبها هواها فاذا هى قد ألقت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التى لم تنازع نفسها قط فى هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار

واندفاع المتهجمين على الشر فى حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا

ضرورة ملزمة تقضى بها شريعة القتال ، لهو الاندفاع الذى يسبر لنا عمق الشعور بالاثم فى نفوس أصحاب يزيد . وقد رأينا من قبل عمق الشعور بالحق فى أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والايذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان ، كشمر بن ذى الجوشن ، ومن جرى مجراه .. فهؤلاء لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السبيل اليه

على أنها — بعد كل هذا — حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام .. فشأنها على أية حال أن تصبح مجالا من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت فى ذلك أقصى مدى الطرفين

***

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمناجزة ، أن تتقصى أوائل القتال وتتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها .. فان الأقوال فى سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كان هذا الترتيب فى رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد ..

الا أن الترتيب الطبيعى يستبين للعقل من سبب الوقوف فى ذلك المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله وأن يرد الماء حتى نكرهه العطش الى التسليم ، وكان الموقف كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون :

منع الفتى هينا فجر عظائما وحمى غير الماء فانبعث الدم

ولم يمتنع طريق الماء فى بادىء الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من جماعة عمر بن سعد ، لم يكونوا على جزم بما يصنعون فى مواجهة الحسين وصحبه .. فلما اندفع بعض أصحاب الحسين الى الماء بالقرب والأداوى ، مانعهم القوم هنيهة ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفا وحيرة ، فشربوا وملأوا قربهم وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء الى حين

والظاهر أن الشر كله كان فى حضور شمر بن ذى الجوشن على تلك

الساحة ، متربصا كل التربص بمن يتوانى فى حصار الحسين ومضايقتـه فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيـادة الجيش وامارة الرى بعد عزل عمر بن سـعد بن أبى وقاص .. فبطـل التردد شيئا فشيئا ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن يصلوا الى الماء . ولبثوا أياما وليس فى معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان الا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة

وفى ذلك المأزق الفاجع ، نضحت طبائع اللؤم فى معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة فى البنية الآدمية .. فاقترفوا من خسـة الأذى ما تنزه عنه الوحوش الضاريات ، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود وتندى له الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفا وامتعاضا لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة ، وبيان لما يلى من وقعها فى النفوس وتسلسل تراثها الى أمد بعيد ..

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله .. ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوّى من ألمه وعطشه ، وقد بحّ صوته من البكاء ، فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم : « اتقوا الله فى الطفل ان لم تتقوا الله فينا » فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه ، ورمى الطفـل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران : « خذ اسقه هذا » .. فنفذ السهم الى أحشائه ! ..

وكانوا يصيحون بالحسين متهاتفين : « ألا ترى الى الفرات كأنه بطون الحيات ؟! .. والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشا »

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرماه حصين بن نمير

بسهم وقع فى فمه .. فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتــلأت راحتاه بالدم ، فرمى به الى السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول : « ان تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم لنا من القوم الظالمين ! »

وقد كان منع الماء — قبل الترامى بالسهام — نذيرا كافيا بالحرب ، يبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة .. ولكنه رأى شمر بن ذى الجوشن — أبغض مبغضيه المؤلبين عليه — يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصميه وهو من أسد الرماة .. لأنه كره أن يبدأهم بعداء ..

***

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة فى الدفاع عن مولاهم ،وعلم أنهم لا يخلصون فى حبّه ، ولا يؤمنون بحقّه ، وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة .. فطمع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمى بسهم واحد من سهام القتال . فخرج لهم يوما بزى جده عليه السلام متقلدا سيفه لابسا عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه دليلا على صدق فراسته فيهم ، لأن رؤساءهم ومؤلبيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ الى قلوبهم ويلمس مواقع الاقتــاع من ألبابهم . فضجوا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم ويتقوا أثر موعظته فيهم ، وهو بتلك الهيئة التى تغضى عنها الأبصار وتعنو لها الجباه ..

ولكنه صابرهم حتى ملوا ، وملّ اخوانهم ضجيجهم هــذا الذى يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ، ولا يوجب الثقة بدعواهم عند اخوانهم .. فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعد الحمد والصلاة : « انسبونى من أنا .. هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟ .. أو لم

يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخى : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ ويحكم ! .. أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟ »

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم خرجوا لحربه فى جيش ابن زياد . فقال : « ياشبيث بن الربعى ! ياحجار بن أبجر ! ياقيس ابن الأشعث ! يا يزيد بن الحارث ! يا عمر بن الحجاج ! .. ألم تكتبوا الى أن قد أينعت الثمار واخضرت الجنبات ، وانما تقدم على جند لك مجند ؟ » ..

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع ممن فيه مطمع لاقناع ، وتحولت الى صفه فئة تعلم أنها تتحول الى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطابت هذا الموت ولم تستطب البقاء مع ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال

***

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبل الاحتكام الى السيف .. فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات فى أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه وتعرض لهم قائلا : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار ، ان حقا على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وأنتم أمة .. ان الله قد ابتلانا واياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، وانا ندعوكم الى نصر حسين وخذلان الطاغية بن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فانكم لا تدركون منهما الا سوءا : يسملان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه وهانىء بن عروة وأشباهه »

فوجم منهم من وجم ، وتوقح منهم من توقح ، على ديدن المريب المكابر

اذا خلع العذار ولم يأنف من العار ، وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه ان يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين الى عبيد الله بن زياد

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين الى معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين . ولكن بداءة التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد هو الحر بن يزيد الذى أرسلوه فى أول الأمر ليحلىء الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان يحسب أن عمله ينتهى الى هذه المراقبة ولا يعدوها الى القتال وسفك الدم .. فلما تبين نية القتال ، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلا قليلا ، وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد .. حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس فقال له :

ــ والله ان أمرك لمريب .. ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك ..

فباح له الرجل بما فى نفسه وقال له :

ــ انى أخيّر نفسى بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت أو حرقت ..

ثم ضرب فرسه ، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلا :

ــ لو علمت أنهم ينتهون الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وانى قد جئتك تائبا مما كان منى الى ربى ، مؤاسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ! ..

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون ايمانه ويودون لو يلحقون به الى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن يتحول أمامهم الى المعسكر وهم ناظرون اليه ، لأنه يبكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر فى أسباب ندمه ، لا لأنه ينتقص عددهم أو ينذر بالهزيمة فى ميدان القتال .. فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره

ويعتقد فى فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ؛ وبعيد على العقـل أن يصدق فى هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدبا يغلب شعور الجماعة وايمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوى ، ويهون عليه قتل سبط النبى فى هذا السبيل ، وكيف وان منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه اليه نيقود « الجند المجند » الى قتال يزيد ؟ فكلامهم فى البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بألسنتهم ولا يستر ما فى طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج فى مكانه وحركته القدوة التى يريدونها ولا يثوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقًا وأشـدهما حيرة وأعجلهما الى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى العسكرين

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق ، ولكنه كان مطمئنا الى حقه يلقى الموت فى سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة الى هذا المصير ..

والعسكر الآخر أكبر العسكرين ولكنه كان « يخون » نفسه فى ضمير كل فرد من أفراده ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت ومغالطة واضطراب ، يحز فى الأعصاب ويقذف بالمرء الى الخـلاص كيفما كان الخلاص ..

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهما فى الفضاء كأنه كان متشبثا بصدره فاستراح منه بانطلاقه ..

فزحف الى مقربة من معسكر الحسين ، وتناول سهما فرماه عن قوسه الى المعسكر وهو يصيح :

ـــ أشهدوا لى عند الأمير اننى أول من رمى الحسين ..

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل فى نية القوم ،

وقال الحسين وهو ينظر الى السهام وينظر الى أصحابه :
— قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم ..
وبذلك بدأ القتال ..

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وان كان على انتظاره اياها قد تريث حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبا لا خلاف فيه ..

فاختار له رابية يحتمى بها من ورائه ، ووسع وهدتها حتى أصبحت خندقا لا يسهل عبوره .. فأوقد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم فى كثرتهم التى ترجح عدة صحبه ستين ضعفا قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه

وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا .. وهم نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسـان وراكبو الابل ويحملون صنوفا مختلفة من السلاح ..

ومع هذا التفاوت البعيد فى عدد الفريقين ، كان العسكر القليل كفؤا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التى كانت دعوة مجابة فى ذلك العصر ، اذا اختارها أحد الفريقين ..

فان آل على جميعا كانوا من أشهر العـرب — بل من أشـهر العرب والعجم — بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوى الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذى صرع جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم فى زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان فى أرض الروم يفخر به أهلها .. فأرسله ملكهم الى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقـاء بأسه . فجلس محمد بن الحنفية وطلب من ذلك الجبار الرومى أن يقيمه ، فكان كأنما يحرك جبلا لصلابة أعضائه وشدة أسره . فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات

والحسين رضى الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل على ممن

ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد ، وكانوا كفؤا لمبارزة الأنداد واحدا بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون فى منازلة الشجعان ، كما تتبدد السائمة المذعورة بالعراء ..

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم لهم شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمى بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرا لايتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين فى مثل تلك الرحلة هى وحدها آية على الشجاعة فى ملاقاة الموت وكرم التحيزة فى ملاقاة الفتنة والاغراء .. فاذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم فى الغلب بضعيف

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها .. فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها ..

فعدل الفريقان الى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد الا فشل أو نكص على عقبيه ، فخشى رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التى لا أمل لهم فى الغلبة بها ، وصاح عمر بن الحجاج برفاقه :

ـ أتدرون من تقاتلون ؟.. تقاتلون فرسان المصر وقوما مستميتين . لا يبرز اليهم منكم أحد فانهم قليـــل .. لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم ..

فاستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونهى الناس عن المبارزة ..

فلما برز عابس بن أبى شبيب الشاكرى بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيدا منه . فقال لهم عمر :

ـ ارموه بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهى تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان فى جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلى هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة ؟.. ابعث اليهم الرجال والرماة » فبعث اليه بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحصين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندى ممن عدل الى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمى النبال والسهام ، جثا بين يدى الحسين وأرسل مائة سهم لم يكد يخيب منها خمسة أسهم .. وقاتل حتى مات ..

وكان الذين عدلوا الى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمة فى القتال وهجمة على الموت ، ومنهم الحر بن يزيد الذى تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عن حرب الحسين أو بالعدول الى صفه .. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعا وأقتلها نبلا حتى سقط مثخنا بالجراح وهو يناى الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله »

ولم يكن من أصحاب الحسين الا من يطلب الموت ويتحرى مواقعه وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلى يكتب اسمه على أفواق نبله ويرسلها فيقتل بها ويجرح ، وقلما يخطىء مرماه . فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ، فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم اثنى عشر رجلا سوى من جرحت ، ولو بقيت لى عضد وساعد لزدت »

واستهدف الحسين رضى الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم ، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون الا بين يديه . وكلما سقط منهم صريع ، أسرع الى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضـوا الأخبية التى أوى اليها النسـاء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخـذوا فى احراقهـا ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضى الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

ــ دعوهم يحرقونها .. فانهم اذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها ..

وظل على حضور ذهنـه وثبات جأشه فى تلك المحنة المتراكبة التى تعصف بالصبر وتطيش بالألباب .. وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به الا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء . فانه رضى الله عنه كان يقاسى جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقى باله الي حركات القوم ومكائدهم ، ويدير لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم .. ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم . ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله الى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون فى حشرجة الصدور ما هم فيه .. فيطلبون الماء ويحز طلبهم فى قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع الى ذخيرة بأسه فيستمد من هـذه الآلام الكاوية عزما ينـاهض به الموت ويعرض به عن الحياة .. ويقول فى أثر كل صريع : « لا خير فى العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه ..

وانه لفى هـذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب .. اذا

بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب ، واذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين الى الأطفال والصبيان من عترته وآل بيته ، وسقط كل من معه واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب عنه ، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير ..

وكان غلام من آل الحسين ـ هو عبد الله بن الحسن أخيه ـ ينظر من الأخبية ، فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيبـه حين أخطأ زميله ، فهرول الغلام الى عمه وصاح فى براءة بالرَّجل :

ـ يا ابن الخبيثة .. أتقتل عمى ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها .. فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع عن يليه ..

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون ، ويشد على الخيل راجلا ويشق الصفوف وحيدا ، ويهابه القريبون فيبتعدون ، ويهم المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تحرجوا من قتله ، وأحب كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذى الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله :

ـ ويحكم !.. ماذا تنتظرون بالرجل ؟.. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ..

فاندفعوا اليه تحت عينى شمر مخافة من وشايته وعقابه .. وضربه زرعة ابن شريك التميمى على يده اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخرَّ على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت بعد موته رضوان الله عليه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير اصابة النبل والسهام ، وأحصاها بعضهم فى ثيابه فاذا هى مائة وعشرين

وتزل خولى بن يزيد الاصبحى ليحتز رأسه ، فملكته رعدة فى يديه

وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له :

ـ فتّ الله فى عضدك !..

واحتز الرأس وأبى الا أن يسلمه اليه فى رعدته ، سخرية به وتماديا فى الشر ، وتحديا به لمن عسى أن ينعاه عليه ! وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله وصفا لا يطرقه الشك والاتهام ، فكان ضغنه هذا كله ضغنا لا معنى له ولا باعث اليه الا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به الكرام ، ويجعلوه تحديا مكشوفا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولـكنهم يبلغون به مأربهم اذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار ..

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر اليها منحدرون كثيرون

فلم يكن فى عسكر الحسين كله الا رمق واحد من الحياة باق فى رجل طعين مثخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات ..

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبى المطاع أصدق الأنصار وأنبل الأبطال ..

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فاذا هى حسبها من شرف مجد وثناء ..

***

تنـادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذى أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحمّ الختام ، ولم يخطر له أنه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شىء فى تلك اللحظة العصيبة الا أن يجاهد فى القوم بما استطاع ، بالغا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع ..

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر الى شيء يجاهد به فلم تقع يده الا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح .. ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذى لا يفر من شيء ولا يبالى من يصيب وما يصاب . فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التى كانت خليقة أن تمتد اليه ، وانطلق هو يثخن فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغيمتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان .. فكان هذا حقا هو الكرم والمجد فى عسكر الحسين الى الرمق الأخير

خسة ووحشية ..

وكان حقا لا مجازا ما توخيناه حين قلنا انهما طرفان متناقضان . وأنها حرب بين أشرف ما فى الانسان وأوضع ما فى الانسان

فبينما كان الرجل فى عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الأخير فى سبيل ايمانه ، اذا بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم فى رأيهم — قبل رأى غيرهم — من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فلو كان كل ما فى عسكر الحسين ذهبا ودرا لما أغنى عنهم شيئا وهم قرابة أربعة آلاف .. ولكنهم ، ما استيقنوا بالعاقبة — قبل أن يسلم الحسين نفسه الأخير — حتى كان همهم الى الاسلاب التى يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا الى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلى والثياب التى على أجسادهن ، لا يزعهم عن حرمات رسول الله وازع من دين أو مروءة . وانقلبوا الى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها . ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره

وقد يساق الغنم هنا معذرة للاثم بالغا ما بلغ هذا من العظم ، وبالغا ما بلغ ذلك من التفاهة . لكنهم فى الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع فى مغنم كبير أو صغير . فحرموا الرى على الطفل الظامىء العليل وأرسلوا الى أحشائه السهام بديلا من الماء ، وقتلوا من لا غرض فى قتله وروعوا من لا مكرمة فى ترويعه .. فربما خرج الطفل من الأخبية ناظرا وجلا لايفقه ما يجرى حوله ، فينقض عليه الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن فى الذى حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء . فقد قتل فعلا فى كربلاء كل كبير وصغير من سلالة على رضى الله عنه ، ولم ينج من ذكورهم غير الصبى على زين العابدين .. وفى ذلك يقول سراقة الباهلى :

عين جودى بعبـرة وعويل   واندبى ما ندبت آل الرسـول
سـبعة منهـم لصـلب على   قد أبيـدوا وسبعة لعقيـل

وما نجا على زين العابدين الا بأعجوبة من أعاجيب المقادير ، لأنه كان مريضا على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد ، فلما هم شمر بن ذى الجوشن بقتله ، نهاه عمر بن سعد عنه اما حياء من قرابة الرحم أمام النساء — وقد كان له نسب يجتمع به فى عبد مناف — واما توقعا لموته من السقم المضنى الذى كان يعانيه .. فنجا بهذه الأعجوبة فى لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ، ولولا ذلك لباد

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلاهم .. ومروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضى الله عنها :

— يا محمداه !.. هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا ..

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم .. فبكى العدو كما بكى الصديق ! ..

***

لم تنقض فى ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبى محمـد عليه السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد الذى بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة الى النور ، ومن حياة التيه فى الصحراء الى حياة عامرة يسودون بها أمم العالمين . ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، واذا هم فى موكب جهير يجوب الصحراء الى مدينة بعد مدينة : سباياه بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفى عليها الصبا »

فخرج لها مع الليل جماعة من بنى أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء .. فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء الى حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله ـ شرفا ولا وحشة ـ فى الآباد بعد الآباد ..

وكان يوم المقتل فى العاشر من المحرم .. فكان القمر فى تلك الليلة على وشك التمام .. فحفروا القبور على ضوئه ، وصـلـوا على الجثث ودفنوها ، ثم غادروها هناك فى ذمة التاريخ . فهى اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسـان ، لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحى الآدمى بين سائر الأحياء

فما أظلت قبـة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء

مَوْطِن الرأس

اتفقت الأقوال فى مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أيما تعدد فى موطن الرأس الشريف ..

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة الى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..

ومنها انه أرسل الى عمرو بن سعيد بن العاص والى يزيد على المدينة ، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء ..

ومنها انه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته ، فدفن بدمشق عند باب الفراديس ..

ومنها انه كان قد طيف به فى البلاد حتى وصل الى عسقلان ، فدفنه أميرها هناك وبقى بها حتى استولى عليها الافرنج فى الحروب الصليبية.. فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله الى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور . قال الشعرانى فى طبقات الأولياء : « ان الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج هو وعسكره حفاة الى الصالحية ، فتلقى الرأس الشريف ووضعه فى كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن فى المشهد الحسينى قريبا من خان الخليلى فى القبر المعروف »

وقال السائح الهروى فى الاشارات الى أماكن الزيارات : « وبها ــ أى عسقلان ــ مشهد الحسين رضى الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون الى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة »

وفى رحلة ابن بطوطة انه سافر الى عسقلان « وبه المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام ، قبل أن ينقل الى القاهرة »

وذكر سبط بن الجوزى فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات ، وانه لما جىء به بين يدى يزيد بن معاوية قال : «لأبعثنه

الى آل أبى معيط عن رأس عثمان » وكانوا بالرقة ، فدفنوه فى بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو الىجانب سوره هناك

فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ستة فى ست مدن هى : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة ، وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية . وتكاد تشتمل على مداخل العالم الاسلامى كله من وراء تلك الأقطار ، فان لم تكن هى الأماكن التى دفن فيها رأس الحسين فهى الأماكن التى تحيا بها ذكراه لا مراء ..

وللتاريخ اختلافات كثيرة ، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام . فأيا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف ، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف . وانما أصبح الحسين ــ بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية ــ معنى يحضره الرجل فى صدره وهو قريب أو بعيد من قبره . وان هذا المعنى لفى القاهرة ، وفى عسقلان ، وفى دمشق ، وفى الرقة ، وفى كربلاء ، وفى المدينة ، وفى غير تلك الأماكن سواء

وقاحة ابن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد ..

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء الى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها فى أحياء الكوفة ثم ترسل الى يزيد

وكانت فعلة يدارونها بالتوقح فيها على سنة المأخوذ الذى لا يملك مداراة ما فعل . فبات خولى بن يزيد ليلته بالرأس فى بيته ، وهو يمنى نفسه بغنى الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله »

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله .. فرآه ينكث ثنايا الرأس حين وضع أمامه فى أجانه ، فصاح به مغضبا :

ـ ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين .. فوالذى لا اله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله على هاتين الشفتين يقبّلهما ..

وبكى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :

ـ لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقك !

فخرج زيد وهو ينادى فى الناس غير حافل بشىء :

ـ أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم

وأدخلت السيدة زينب بنت على رضى الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين واماؤها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما أمامها . فسأل ابن زياد :

ـ من هذه التى انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجبه .. فأعاد سؤاله ثلاثا وهى لا تجيبه ، ثم أجابت عنها احدى الاماء :

ـ هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاجترأ ابن زياد قائلا :

ـ الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم ..

وقد كانت زينب رضى الله عنها حقا جديرة بنسبها الشريف فى تلك الرحلة الفاجعة التى تهد عزائم الرجال .. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت على وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسينى من الذكور .. ولولاها لانقرض من يوم كربلاء ..

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :

ـ الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا .. انما

يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله

فقال ابن زياد :

ــ قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة

فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفى الذى لا ناصر لها منه ، وقالت :

ــ لقد قتلت كهلى ، وأبدت أهلى ، وقطعت فرعى واجتثثت أصلى ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت ..

فتهاتف ابن زياد ساخرا وقال :

ــ هذه سجاعة .. لعمرى لقد كان أبوها سجاعا شاعرا

فقالت زينب :

ــ ان لى عن السجاعة لشغلا .. ما للمرأة والسجاعة ؟

على زين العابدين

ثم نظر ابن زياد الى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب فسأله :

ــ من أنت ؟

قال : على بن الحسين

قال : أو لم يقتل الله على بن الحسين ؟

قال : كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله

فقال على : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله ..

فأخذت زيادا عزة الاثم وانتهره قائلا :

ــ وبك جرأة لجوابى !

وصاح الخبيث الأثيم بجنده :

ــ اذهبوا به فاضربوا عنقه ..

فجاشت بعمة الغلام قوة لايردها سلطان ، ولا يرهبها سلاح .. لأنها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة ، فاعتنقت الغلام اعتناق من

اعتزم ألا يفارقه الا وهو جثة هامدة ، وأقسمت لئن قتلته لتقتلنى معه .
فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجبا :
ــ يا للرحم .. انى لأظنها ودت انى قتلتها معه
ثم قال : « دعوه لما به » .. كأنه حسب ان العلة قاضية عليه

وعلى هــذا هو زين العــابدين جد كل منتسب الى الحسين عليهما السلام ، وكان كما قال ابن سعد فى الطبقات : « ثقة كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا » ، وكما قال يحيى بن سعيد : « أفضل هاشمى رأيته فى المدينة » ..!

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتى ابن زياد !

الراس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين فى الكوفة وأرباضها ، أنفذه ورؤوس أصحابه الى دمشق مرفوعة على الرماح ، ثم أرسل النساء والصبيان على الاقتاب ، وفى الركب على زين العابدين مغلول الى عنقه يقوده شمر بن ذى الجوشن ومحضر بن ثعلبة .. فتلاحق الركبان فى الطريق ودخلا الشام معا الى يزيد

وتكرر منظر القصر بالكوفة فى قصر دمشق عند يزيد .. ولا نستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن انه قد وقع فى التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة فى هذا المقام تستوحى ضربا واحدا من التعقيب وضربا واحدا من الحوار ..

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة فى كربلاء حين بلغتهم ، وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

لهــام بجنب الطف أدنى قرابة
من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل

سمية أمسى نسلها عدد الحصى

وبنت رســول الله ليست بذى نسل

فأسكته يزيد .. وقال وهو يشير الى الرأس وينكث ثناياه بقضيب فى يده : (أتدرون من أين أتى هذا ؟.. انه قال : « أبى على خير من أبيه وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر » .. فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ..

وهو كلام ينسب مثله الى معاوية فى رده على حجج على فى الخلافة .. ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه

ونظر بعض أهل الشام الى الســيدة فاطمة بنت الحسين ــ وكانت جارية وضيئة ــ فقال ليزيد : « هب لى هذه » ، فأرعدت وأخــذت بثياب عمتها .. فكان لعمتها فى الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة ، ذيادا عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

ــ كذبت ولؤمت .. ما ذلك لك ولا له

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، ان ذلك لى .. ولو شئت لفعلت »

قالت : « كلا والله .. ما جعل الله لك ذلك ، الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا »

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « اياى تستقبلين بهذا ؟.. انما خرج من الدين أبوك وأخوك »

قالت : « بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك » ..

فلم يجد جوابا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله »

فقالت : « انت أمير تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك »

فأطرق وسكت ...

وأدخل على بن الحسين مغلولا ، فأمر يزيد بفك غله وقال له :

ـ ايه يا ابن الحسين .. أبوك قطع رحمى وجهـل حقى ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت ..

قال على :

ـ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها . ان ذلك على الله ليسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . فتلا يزيد الآية : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . ثم زوى وجهه وترك خطابه..

وكان لقاء نساء يزيد خيرا من لقائه .. فواسين السيدة زينب والسيدة فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكربلاء فيرددن اليهن مثله وزيادة عليه ..

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ الى النعمان بن بشير واليه الذى عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين .. وأمره أن يسير آل الحسين الى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم . وقيل انه ودع زين العابدين ، وقال له : « لعن الله ابن مرجانة .. أما والله لو أنى صـاحب أبيك ما سألنى خصـلة أبدا الا أعطيتـه اياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى . ولكن الله قضى ما رأيت يابنى !.. كاتبنى من المدينة ، وأنه الى كل حاجة تكون لك »

تبعة يزيد

والناس فى تقدير التبعة التى تصيب يزيد من عمـل ولاته مشارب وأهواء ، يرجع كل منهم الى مصدر من مصادر الرواية فيبنى عليه حكمه

فمنهم من يرى انه برىء من التبعة كل البراءة .. ومنهم من يرى انه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها .. ومنهم من يقول انه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء

والثابت الذى لا جدال فيه ، أن يزيدا لم يعاقب أحدا من ولاته كبر

أو صغر على شيء مما اقترفوه فى فاجعة كربلاء ، وان سياسته فى دولته بعد ذلك كانت هى سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة مما حدث فى كربلاء . فاستباحة المدينة — دار النبى عليه السلام — وتحكيم مسلم ابن عقبة فى رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجرى هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره وما زال يزيد وأخلافه يأمرون النـاس بلعن على والحسين وآلهما على المنابر فى أرجاء الدولة الاسـلامية . ويستفتون من يفتيهم باهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم . ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب فى رأى لاعنيه

ومن أفرط فى سوء الظن ، رجح عنده أن عبيد الله بن زياد كان على اذن مستور بكل ما صنع ، ويملى لهم فى هذا الظن ان استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك فى بيته وعقبه ، ويفيده أن يقدم عليها مستترا من وراء ولاته ثم ينصل منها ويلقى بتبعتها عليهم . ولو لم يكن ذلك لكان عجيبا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله الى والى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه .. فقد كان الزمن الذى انقضى منذ خروج الحسين من مكة الى نزوله بالطف على الفرات كافيا لبلوغ الخبر الى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضرورى فى هذا الموقف لوالى الكوفة وغيره من الولاة ، فان لم يكن الأمر تدبيرا متفقا عليه فهو المساءة التى تلى ذلك التدبير فى السوء والشناعة . وهى مساءة التهاون الذى لا تستقيم على مثله شئون دولة . وقد روى ابن شريح اليشكرى أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلى الحسين فانه أشـار الى يزيد بقتله أو قتلى فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه ..

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب الى الظن بايعازه وتدبيره .. لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبـل ولاته على غاربهم وهو لاه بصيده وعبثه ، وانه ربما ارتاح فى سريرته بادىء الأمر الى فعلة ابن زياد

وأعوانه .. ولكنه ما عتم أن رأى بوادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد الى المحاسنة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن فى يقظته على هـذا معتصما بالحكمة والسداد ..

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر فى بيته قبل عاصمة ملكه .. فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول اذا سئل : « نبكى على بنى أمية لا على الماضين من بنى هاشم » ..

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل انها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة ، ولن نهون جريرتها فى الحاضر القريب ولا فى الآتى البعيد ..

والواقع انها قد استتبعت بعدها جرائر شتى لا جريرة واحدة ، وما تنقضى جرائرها الى اليوم ..

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة فى ثورة حنق جارف يقتلع السدود ويخترق الحدود .. لأنهم حملوا اليهـا خبر الحسين محمـل التشـهير والشماتة . وضحك واليهم عمرو بن سعيد حين سمع أصـوات البكاء والصراخ من بيوت آل النبى ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجب نسـاء بنى زياد عجة   كعجيج نسـوتنا غداة الأرتب

وكانت بنت عقيل بن أبى طالب تخرج فى نسائها حاسرة وتنشد :

ماذا تقولون ان قال النبى لكم :
ماذا فعلتم .. وأنتم آخر الأمم ؟
بعترتى ، وبأهلى ، بعد مفتقدى ..
منهم اسـارى ، ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم
أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو ابن سعيد : « ناعية كناعية عثمان »

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان وهو يذود عنه ويجتهد فى سقيه وسقى آل بيته .. ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول

ثورة المدينة

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم فى تلفيق « المظاهرات الحجازية » ، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج والأسى الدفين وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم على نسيان خطب الحسين واصطناع الولاء المغتصب ليزيد . فحملوا الى دمشق وفدا من أشراف المدينة لم يلبثوا أن عادوا اليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته ، وراحوا يقولون لأهل المدينة : « انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطنابير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخراب »

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الانصارى وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : « لو لم أجد الا بنى هؤلاء — وكان له ثمانية بنين — لجاهدت بهم . وقد أعطانى وما قبلت عطاءه الا لأتقوى به »

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة ، فأخرج المدنيون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة ..

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدا بعد واحد حتى قتلوا جميعا ، وقتل بعدهم انفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته

وبدا فى ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرا ولا قليلا من عبرة كربلاء ، لأنه سلط على أهلها رجلا لا يقل فى لؤمه وغله وسوء دخلته ، وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ،

وهو مسلم بن عقبة المرى . فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام ان لم يبادروا الى طاعته ، وكان شرطه الذى سامهم اياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التى انتظر فيها طاعتهم « انهم يبايعون أمير المؤمنين على انهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم ما شاء »

واذا كان شيء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح فى الظلم من استباحة الأرواح والأعراض فى جوار قبر النبى عليه السلام .. فذلك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقى على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذى أبلاه ، ولم يبل ما فى طويته من رجس ومكيدة . «فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الأقدام فى الدم وقتل أبناء المهاجرين والأنصار »

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » .. ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الأعراض حتى يلتذ باثارة الآمال والمخاوف فى نفوس صرعاه قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله : « أعطشت يا معقل ؟.. حوصوا له شربة من سويق اللوز الذى زودنا به أمير المؤمنين » .. فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا .. وأمر بضرب عنقه .. »

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة . وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ..

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث من أمثاله .. دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الأمصار ومعها صبى لها . فقال : « هل من مال ؟ »

قالت : « لا .. والله ما تركوا لنا شيئا »

قال : « والله لتخرجن الى شيئا أو لأقتلنك وصبيك هذا »

فقالت له : « ويحك .. انه ولد ابن أبى كبشة الانصارى صاحب رسول الله » . فأخذ برجل الصبى والثدى فى فمه ، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التى قتل فيها أولئك الألوف من النسوة والأطفال والآباء والأمهات ...

وقد مات هذا السفاح وهو فى طريقه الى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة .. فدفن فى الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه

جريرة العدل

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه ، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التى حاقت بكل من مد يدا الى الحسين وذويه ..

فسلط الله على قاتلى الحسين كفؤا لهم فى النقمة والنكال يفل حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذى يعرفونه . وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين . فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم فى نصرته ، وأن يتعاهدوا على الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مذال القبر فى العراء ..

فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمر بن سعد ، ولا شمر بن ذى الجوشن ، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولى بن يزيد ، ولا أحد ممن أحصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى أو الأحياء ..

وبالغ فى النقمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين ، وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله .. فقتل عبيد الله وأحرق ، وقتل شمر بن ذى الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب ، ومات مئات من رؤسائهم بهذه المثلات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين فى

النهر أو مطاردين الى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة .. فكان بلاؤهم بالمختار عدلا لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار

ولحقت الجريرة الثالثة بأعقاب الجريرة الثانية فى مدى سنوات معدودات ..

فصمد الحجاز فى ثورته أو فى تنكره لبنى أمية الى أيام عبد الملك بن مروان ، وكان أحرج الفريقين من سبق الى أحرج العملين . وأحرج العملين ذاك الذى دفع اليه ــ أو اندفع اليه ــ الحجاج عامل عبد الملك .. فنصب المنجنيق على جبال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية .. فقد كان قائده الذى خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والاحراق ..

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بنى أمية ، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه فى دولة بنى العباس .. فعموا بنقمتهم الأحياء والموتى ، وهدموا الدور ، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار بن أبى عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين .. فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشىء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة ، حتى ذهبوا بها مضروبين الى آخر الزمان

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء .. فاذا بالدولة العريضة تذهب فى عمر رجل واحد مديد الأيام ، واذا بالغالب فى يوم كربلاء أخسر من المغلوب اذا وضعت الأعمار المنزوعة فى الكفتين

من الظافر؟

غبن أن يفوت الانسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..

وأثقل منه فى الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالاساءة ، ويجزى المسيء بالاحسان ..

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ، ووجهة للشريعة والدين ..

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التى تلتقى فيها كل هذه المقاصد الرفيعة .. فاذا بطل الجزاء الحق ففى بطلانه الاخلال كل الاخلال بمعنى التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان . وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الانسانى بالتشويه والخسار

والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الانسانى كرامة لنفسه ويقينا من صحته وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضا للبصر يرتاح الى تحقيقه ويحزن لفواته وان لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة والاخلال به داء كريه

ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه التى تزرى بكرامة العقل الانسانى ، كاستهدافه لها وهو فى مصطدم التضحية والمنافع ، أو فى الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ..

ففى هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شيء وانهزم ، وهو فى الحقيقة غانم ظافر

ويبدو لنا أنه قد ربح كل شيء وانتصر وهو فى الحقيقة خاسر مهزوم ..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه ، لأنه المدخل الذى يفضى الى الجزاء الحق والنتيجة الحقة ، وينتهى بكل عامل أفلح أو أخفق فى ظاهر الأمر الى نهاية مطافه وغاية مسعاه فى الأمد الطويل

وقد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن على ويزيد بن معـاوية بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيص الجزاء الحق فى أعمـال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تتاح فى أخبار الأمم شرقا وغربا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها ، وفى تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة ..

فيزيد فى يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذى لايشوبه خذلان..

وحسين فى ذلك اليوم هو المخذول الذى لم يطمح خاذله من وراء الظفر به الى مزيد ..

ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ..

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ..

وهذا الذى قصدنا الى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول

***

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد فى أطوار هذا الوجود

ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الايمان والمآرب الأرضية ، فان لهذا الصراع لألوانا تتعدد ولا تتكرر على هـذا المثال ، وان له لعناصر لم تجتمع كلها فى طرفى الخصومة بين الرجلين ، وأشواطا لم تتخذ الطريق الذى اتخذته هذه الخصومة فى البداية أو النهاية

ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهى ان مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعا بين خلقين خالدين ، وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولا أحقابا غابرات ولا يزالان يتجاولان فيما يلى من الأحقاب ؛ وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق ..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه ..

فاذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك فى استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ..

واذا خسر أحد حياته فى سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة فى السمعة والعطف والثناء

فلو جاز هذا لكان العطف الانسانى أزيف ما عرفناه فى هذه الدنيا من الزيوف ، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيف فى العروض الأخرى الا وهو ينطلى يوما وينكشف بقية الأيام ..

***

واذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الانسان

واذا كانت خسارة المرء فى سبيل ايمانه تجمع عليه كل خسارة ، فالأحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه فى طلابه

فكفى الواصل ما وصل اليه ..

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الانسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون

وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد ..

فاذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ، فيزيد لم يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء .. ولكنه ورث المنافع التى يشترى بها الأيدى والسيوف ، فجال بها جولة رابحة فى كفاح الضمائر والقلوب

فينبغى ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح .. فينبغى أن يقف به الربح عند ذاك ، وينبغى للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل

وقد تزلف الى يزيد من يتزلفون الى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا

أجورهم ، فينبغى أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه ، ان كانوا مستحقيه

أما أن يضاف ثناء الخلود الى صفقة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود اذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور ..

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شىء غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء

وليس فى تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة ، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح فى الموازنة بينه وبين الحسين ..

كل أخطائه ثابتة عليه ـــ ومنها بل كلها ـــ خطؤه فى حق نفسه ودولته ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه ..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثـال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله ..

وكانت له ندحة عن السمعة التى لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنـائعه ومأجوروه ، لأن واصـفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه فى النعمة التى نعم بها مغتصبا ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه فى الفضل والكرامة جزافا لا حسيب عليه

***

وتسديد العطف الانسانى هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين فى سـير الغابرين ، لأن العطف الانسانى هو كل ما يملك التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التى يحتفظ بها الخلود ..

واننا لندع الخطأ فى سياسة النفعيين ، وننظر اليهم كأنهم مصيبون فى السياسة بصراء بمواقع التدبير.

فعلى هذه الصفة ــ لو تمت لهم ــ لا يحق لخادم زمانه أن ينـازع الشهداء فى ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التى تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد ..

فان حرمان الشهداء حقهم فى عطف الأسـلاف والأخلاف خطـأ فى الشعور ، وخطـأ كذلك فى التفكير ..

والناس خاسرون اذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم أنهم قساة أو جاحدون .. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتى وتكثر حينا وتندر فى غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فان سميته فضيلة فهو من الفضائل التى لن تفارق الأحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء

***

على أن الطبـائع الآدميـة قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة ، وانما تنحرف عن سواء هـذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها . وأكثر ما تأتى هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة فى الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوى وسجية سمحة محببة الى الناس عامة ، أو من الافراط فى حب الدعة حتى يجفل المرء من الشـهادة استهوالا لتكاليفها واستعظاما للقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجبن والضعة ويستحق المذمة واللوم فى رأى ضميره . وان لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم موقف ازورار وفتور .. وجنح الى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون اليه

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشـهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة التاريخ الصحيح لأنها تعرضهم للخطأ

فى الحكم والتفكير ، كما تعرضهم للخطأ فى العطف والشعور

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا — فى العربية — مؤرخ يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر الى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءا للمنكرات ، وهو الأستاذ محمـــد الخضرى صاحب تاريخ الأمم الاسلامية رحمه الله ..

ففى تعقيبه على ثورة المدينة التى قدمنا الاشارة اليها يقول : « ان الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه . ولا ندرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد ؟.. أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية ، لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الاسلامية ؟.. انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة .. فانه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار .. »

***

ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه أعذارا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة . لأنه يفهم كيف يغضب المرء لما فى حوزته ، ولا يفهم كيف تضيق به كراهة الظلم وغيرة العقيدة عن الاحتمال ..

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ، لأنه يحول بينه وبين انتظـــار هـــذه الحوادث حيث تنتظر لا محـــالة ، واستبعادها حيث هى بعيدة عن التقدير

فلم يحدث قط فى مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر

الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا فى الأمر كما أرادهم أن يفكروا ..

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه انه لم يحدث من قبل فى حركات التاريخ ..

فهذه الحركات التى تواجه الدول المكروهة لا تنتظر — ولا يمكن أن تنتظر — حتى تربى قوتها وعدتها على ما فى أيدى الدولة التى تكرهها من قوة وعدة ..

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترىء على ما يهابه الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقناع وضيق الذرع بالأمور . ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان فى غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج الى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحمق الى تخبط أغلظ منه وأحمق .. فلا هم يقفون فى امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف فى بطشه وجبروته ، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه

وعلى هذا النحو يعرف المؤرخ الذى يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليق أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح فى دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذى لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه

***

وصـــل الأمر فى عهد يزيد الى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحاه ..

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه . وهو — بالبداهة التى لا تحتاج الى مقابلة طويلة — منحى غير منحى الحساب والجمع والطرح فى دفاتر التجار

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضى الى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء .. فانه لواجد فى نهاية المطاف أن دفتر التجار لن

يكتب الربح آخرا الا فى صفحة الشهداء

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ، ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر فى نهاية مطافها بكل شىء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية ..

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون فى أول الشوط ثم ينهزمون فى وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان فاذا هم بكل ميزان خاسرون ..

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ..

ولكن يزيد ذهب الى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين ..

وانهزم الحسين فى كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس فى حلة من النور تخشع لها الأبصار ..

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الانسان غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث

أبو الشهداء

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة .. وحسبه أنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين ..

وأيسر شىء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغمزوا به شهادة الحسين وذويه ..

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون فى الوهم والضلال ..

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيداً قديسا ويطلبه وهو مجرم برىء من القداسة ..

وانما هو طلب وطلب ، وانما هى غاية وغاية ، وانما المعول فى هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب

فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى فيه بين الغصب والحق ، بين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ، ففى سبيل الدنيا يعمل لا فى سبيل الشهادة

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقا ولم يطلبه لأنه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة ، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الايمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعا للمظلمة وجلبا للمصلحة كما وضحت له بنور ايمانه وتقواه ، فليس ذلك بالعامل الذى يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذى يلبى داعى المروءة والأريحية ويطيع وحى الايمان والعقيدة ويضرب للناس مثلا يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة ..

ومن ثم يقيم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق فى أمثال هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين ..

وهى ان الشهادة خصم ضعيف مغلوب فى اليوم والأسبوع والعام ..

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين فى الجيل والأجيال ومدى الأيام ..

وهى حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت اليها بعين الأرض أو بعين السماء على أن تنظر اليها فى نهاية المطاف

ونهاية المطاف هى التى يدخلها « نوع الانسان » فى حسابه ويوشج عليها وشائج عطفه واعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث فى اليوم ، ولا ينظر الى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر الى الخلود ..

عاشق الجمال

اذا لحقت السيرة بعالم المثال الذى يتطلع اليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربقة الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى فى عالم الجمال ..

ومن آيات الجمال انه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة ..

فاذا تعلقت القريحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهى بين يديها وتقبل على الألم وهى ناظرة اليه ، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالى ما يلقاه فى سبيله ..

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال فى كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيما لهم وثناء عليهم .. فلم يتجهوا اليهم ممدوحين وانما اتجهوا اليهم صورا مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه ، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وايلام

وفى معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب
ولا لعبا منى ، وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ولا رسم منزل
ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه
أصاح غراب أم تعرض ثعلب

ولا السانحات البارحات عشية
أمر سليم القرن أم أمر أعضب (١)

ولكن الى أهل الفضائل والنهى
وخير بنى حواء . والخير يطلب

الى النفر البيض الذين بحبهم
الى الله فيما نالنى أتقرب

بنى هاشم ، رهط النبى . فاننى
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

خفضت لهم منى جناحى مودة
الى كنف عطفاه أهل ومرحب

يشيرون بالأيدى الىّ وقولهم
ألا خاب هذا ، والمشيرون أخيب

فطائفة قد كفرتنى بحبكم
وطائفة قالوا : مسىء ومذنب

فما ساءنى تكفير هاتيك منهم
ولا عيب هاتيك التى هى أعيب

يعيبوننى من خبهم وضلالهم
على حبكم ، بل يسخرون وأعجب

وقالوا : ترابى (٢) هواه ورأيه
بذلك أدعى فيهم وألقب

على ذاك اجرياى ، فيكم ضريبتى
ولو جمعوا طرا علىّ وأجلبوا

وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
وينصب لى فى الأبعدين فأنصب

---

(١) السانح : الطير الذى يمر من اليسار الى اليمين وعكسه البارح ، والاعضب : المكسور

(٢) من كنى على إن ابى طالب « أبو تراب »وترابى نسبة اليه

وقد مرَّ بنا حديث زين العابدين رضى الله عنه ، وهو غلام عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر « أن تكون به جرأة على جوابه »

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله ..

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس ، فلم يخلص الى الحجر الأسود لتزاحم الحجيج عليه . وانه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس اذا بزين العابدين يقبل الى الحجر الأسود فى وقاره وهيبته ، فيتنحى له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل .. ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء

وتهول رجلا من حاشية هشام هذه المهابة التى لم يرها لمولاه فيسأل : « من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبة ! »

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول الى مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : « لا أعرفه » .. ويقتضب الجواب

وهـذا الذى تصـدى له شاعر آخر .قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله فى كلمتين عابرتين ..

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هـذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هـذا ابن خير عباد الله كلهم
هـذا التقى النقى الطاهر العلم
هـذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هـذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت ، والعجم

اذا رأته قريش قال قائلهـــــــا :

الى مكارم هـــــذا ينتهى الـكرم

من معشر حبهم دين ، وبغضـــــهم

كفر ، وقربهم منجى ومعتصـــــم

***

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة ــ خالد بن عبيد الله ــ فلعنه وهو قادر على قتله لأنه يلعن عليا وحسينا فى خطبه ، وأنشد :

لعن الله من يسب عليــا وحسينا من ســوقة وامام

أيسب المطـهرون جـدودا والـكرام الآباء والأعمـام

يأمن الطير والحمام ولا يأ من آل الرسول عند المقام

طبت بيتا وطاب أهلك أهلا أهل بيت النبى والاسـلام

رحمــة الله والسـلام عليه كلمـا قام قـائم بسـلام

***

وتنقضى السنون وتتسامع العربيــة بشاعر فحل لم يسلم من لسانه أحــد ، ولم ينزّه أحــدا من المجزلين له أو المقترين عليه عن استحقاق الهجاء .. فكان ينشد الأبيات المقذعة ، ويسأل عن صاحبها فيقول : « لم يستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون »

هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعى الذى يهز أوتار النفوس بأمثال هذه الأبيات فى آل البيت :

مــــــدارس آيات خلت من تلاوة

ومنزل وحى مقفر العرصـــات ! . .

لآل رســـــول الله بالخيف من منى

وبالركن والتـــعريف والجـــمرات

ديار على ، والحســـين ، وجعـــفر

وحمــزة ، والسجاد ذى الثفنــات (١)

---

(١) كان على بن الحسين يلقب بذى الثفنات لان جبهته اصبحت كثفنة البعير – اى ركبته – من كثرة السجود

ديار عفـــاها كل جون مبـــادر

ولم تعف للأيـــام والســـنوات

الى أن يقول :

ملامك فى أهـــــل النبى فانهم

أحبـــاى ما عاشـوا وأهـل ثقـاتى

فيـــارب زدنى من يقينى بصـــيرة

وزد حبـــهم يارب فى حســـناتى

أحب قصى الرحم من أجـــل حبهم

وأهـــجر فيهـــم أسرتى وبنـــاتى

لقـــــد حفت الأيام حـــولى بشرها

وانى لأرجـــو الأمن بعـــد وفاتى

ألم تر أنى من ثلاثين حـــــجة

أروح وأغـــــدو دائم الحسرات

أرى فيئهم فى غيرهم متقســـــما

وأيديهم من فيئـــهم صـــــفرات

فآل رســـــول الله نحف جسومهم

وآل زياد حفـــــــل القصرات (١)

بنات زياد فى القصـــور مصـــونة

وآل رســـول الله فى الفلوات ! . .

اذا وتروا مدوا الى أهـــــل وترهم

أكفا عن الأوتار منقبضـــــات ! . .

***

ووهب على بن موسى الرضـا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل « قم » ثلاثين ألف درهم ليبيعهم الخلعة فضن بها . ثم ترصدوا له فى الطريق ليأخذوها منه عنوة

---

(١) القصرة الرقبة ، وحفل القصرات أى غلاظ الرقاب من السمن

تبركا وذكرى . فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة .. واسترضوه فلم يرض الا أن يعطوه كما من أكمامها ليدفن معه فى كفنه ، وتقسموا الخلعة بينهم فخورين بها غير مبالين ما بذلوه فى ثمنها

وانقضت فترة لم تطل .. وتسامعت العربيـة بشاعر آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح

ذلك هو أبو العبـاس على بن الرومى الذى نسى ممدوحيه من آل طاهر وبنى العباس ليذكر حق حفيد الحسين يحيى بن عمر الشهيد . ولو كلفه ذكره القتل والحرمان

وفى بعض ما ساقه من النذر لأمراء زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية :

غررتم لئن صـدقتم أن حالة
تدوم لـكم ، والدهر لونان ، أخرج
لعـل لهم فى منطوى الغيب ثائرا
سيسمو لكم والصبح فى الليـل مولج
بمجر تضـيق الأرض من زفراته
له زجل ينفى الوحـوش وهزمج (١)
يود الذى لاقوه أن سـلاحه
هنـالك خلخـال عليـه ودملج
فيـدرك ثأر الله أنصـار دينـه
ولله أوس آخـرون وخـزرج
ويقضى امام الحق فيـكم قضـاءه
مبينا ، وما كل الحوامـل تخدج

وكل أولئك شاعر ينسى التقوى فى مواطن شتى من عمله وقوله ولا ينساها فى حق الشهداء من آل الحسين وصحبه .. لأنه يحس الجمال احساس الشعراء ويهتز « للصورة المثلى » اهتزاز الأريحية التى يحلم

(١) الهزمجة اختلاط الصـوت ، والمجر الجيش الكبير

بها رواد الخيال . فهم هنا بمربأة من قيود العيش ووســاوس الحاجة وأعباء النوازع الأرضية ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغى أن يقال .. فيجرى على لسانهم كأنهم مسوقون اليه ..

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل فى نوال ، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال ..

***

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه كان سيء الظن بالناس أجمعين .. وكان يقول ما بدا له فى الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن شأوهم فى السابقين أو اللاحقين

ذلك هو أبو العلاء المعرى حيث قال فى الفجر والشفق :

وعلى الدهر من دماء الشـــــــهيد
ين على ونجله شــــــاهدان

فهما فى أواخر الليـــــــل فجرا
ن ، وفى أوليـــاته شــــفقان

ثبتا فى قميصـــــــه ليجىء الحشـ
ـر مســــــــتعديا الى الرحمـــن

وان وحى الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكما من لسان التاريخ اذا اختلف الحكمان ..

ولكنهما قد توافيا معا على مقال واحد .. فجلوا لنا من سيرة الحسين رضى الله عنه صورة الجمال فى عالم المثال ، وكذلك يعيش ما عاش فى أخلاد الناس ..

فهرس

الحسين أبو الشهداء

صفحة